شخصيات أثرت في التاريخ

صلاح الدين



ساهر رافع

مكتبة النافذة

شخصيات أثرت في التاريخ

صلاح الدين

تأليف

ساهر رافع

الناشر

مكتبة النافذة

صلاح الدين

ساهر رافع

رقم الإيداع ٢٤٨٥ /٢٠٠٨

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

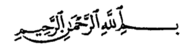
الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى (ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com



مقدمة

أكثر ما شدني للكتابة عن حياة صلاح الدين كان في الحقيقة عدة أسباب متداخلة في بعضها البعض بحيث لا أستطيع أن أفصل سببًا عن آخر، ومن أهم هذه الأسباب:

١ – الشجاعة الشخصية لهذا البطل العظيم.

٢ – الإنسانية المفرطة الواضحة في تصرفاته سواء مع الأعداء أو الأصدقاء.

٣ – ذكاؤه الحاد وقدرته في الرؤية الاستراتيجية للأمور بالإضافة إلى مهاراته الفائقة في التعامل مع المواقف التكتيكية، وقدرته على الاستفادة بنتائجها من أجل تحقيق هدفه الاستراتيجي، وهو بهذه النقطة قد سبق كل قادة عصره سواء من الصليبيين أو المسلمين.

٤ – قدرته الهائلة على تحقيق ما يريد دون أن يؤجج مشاعر الكراهية بين أتباع الأديان، أو المذاهب الدينية المختلفة.

٥ – ما كان يتمتع به من جلد وصبر، ومثابرة على العمل بشكل مستمر وبصورة تعتمد على تنظيم العمل.

٦ – قدرته على استثمار موارده المحدودة في مقابل الموارد اللامحدودة التي

كانت تحت أيدي قادة الحروب الصليبية.

٧ - استطاع أن يجمع بين حب وعشق الجماهير له، واحترام القادة له، وخشية أعدائه منه.

٨ - عدم تحقيق أي مكاسب شخصية من خلال قيادته لجيوش العرب والمسلمين بالرغم من تحقيقه للانتصارات المدوية حيث مات فقيرًا.

٩ - الظروف التي نشأ بها وقاد العرب أثناءها لا تخرج في ظروفها العامة عما نعيشه الآن.. وكأن التاريخ يعيد نفسه لكن الأقدمين ظهر لهم صلاح الدين أما نحن فإننا بانتظاره الآن.

وقد كانت هذه أهم الأسباب التي دفعتني للكتابة عن هذا الرجل الذي أحبه فعلاً على المستوى الشخصي.

وقد تعمدت أن أبدأ الكتاب بعرض للظروف التي خيمت على المنطقة والتي كان فيها صلاح الدين أحد الفرسان الذين لا يمتلكون أي دور في عمليات اتخاذ القرار.

وبعد ذلك وضحت كيف بدأ يظهر على مسرح الأحداث، وأن يفرض نفسه عليها بالرغم من المعارضات الشديدة التي واجهها من أغلب من حوله لكنه في النهاية استطاع أن يرفرف بجناحيه إلى أعلى وبمرور الوقت أصبح قادرًا على الارتفاع أكثر وأكثر، إلى أن رفرف وضم بين جناحيه كل المنطقة.

أما من حيث المنهج الذي استخدمته فهو المنج المتوازي في عرض الأحداث بحيث يكون أمام القارئ في نفس اللحظة أدق التفاصيل التي تحدث داخل كل معسكر.

وبالتالي فإن كل حدث ينقلنا إلى الحدث الآخر الذي يليه، مما يجعلنا في حالة من الفهم الكامل والإدراك الحقيقي لكل الأحداث التي مرت على المنطقة،

ومن ثم نستطيع الحكم على القرار الصادر من كل معسكر من خلال المعرفة الكاملة بالأسباب التي أدت إلى خروجه بهذا الشكل، وأيضًا يجعلنا نحكم كيف استطاع كل طرف من طرفي الصراع الاستفادة من القرارات الصادرة من المعسكر الآخر.

كما أن هذا المنهج في عرض الأحداث يخدم الهدف الأساسي للكتاب، وهو إبراز مهارة وذكاء وخبرة صلاح الدين بصفته بطل الكتاب من خلال الظروف التي واجهها، ومن ثم يكون حكمنا أو رأينا عليه صائبًا باعتباره إنسانًا يشعر ويحس بما يشعر به أهله، وإن كان هو بحكم مكانتبه مسؤولاً عن تحقيق آمالهم وأحلامهم، وأهدافهم.

وأخيرًا، فإن هذه الطريقة تخرج بنا أثناء حكمنا عليها من إطار أسطورية شخصيته إلى واقعية تصرفاته، وكيفية استثماره لمهاراته الشخصية، وخبراته التي تراكمت بتوالي مواجهاته مع الصليبيين، والتي هي في جزء كبير منها تعتمد على الاستفادة من أخطائه السابقة.

وهذا الأمر ينقلنا من مجرد الانبهار بشخصية - تستحق ذلك- إلى بزوغ الأمل في أن نكون كلنا مثله، وبذلك تنفض الأمة عن كاهلها عبء التشرذم والتفتت.

وبطبيعة الحال فإن الكتاب بهذا الشكل هو إهداء لكل أم، وأب، وابن على طول اتساع الرقعة الجغرافية لأمتنا..

ساهر رافع

قبل ظهور النسر

إذا كان النسر المحلق صلاح الدين قد حلق عاليًا في سماء المنطقة العربية، وقد كان لتحليقه عاليًا أثر كبير في كسر شوكة الأطماع الأوروبية في الشرق، والتي وصلت إلى المنطقة وهي تخفي أهدافها الاستعمارية عن طريق إخفائها تحت عباءة الدين.. وذلك حتى تستطيع أن تخدع آلاف البسطاء من أهل أوروبا.. على اعتبار أنهم الذين يدفعون تكاليف هذه الحرب من أموالهم.. كما أنهم الجنود المحاربون على أرض الواقع.

ويرجع السبب في تحويل الأفكار الأوربية نحو ضرورة احتلال الشرق تحت عباءة الدين للاستفادة من خيراته وكنوزه ليس فقط لأن هذه الحروب سوف تحقق الكثير من المكاسب السياسية والاقتصادية، والأمنية لملوك أوربا.. إنما يرجع السبب الحقيقي إلى أن مسرح الأحداث في المنطقة العربية كان مليئًا بالعديد من المشاكل والصعوبات، والتي كان أهمها ضعف الخلافة العباسية،وتفتت دولها وإن بدت من خلال شكلها الظاهر أنها كل متكامل ومتوحد.

إلا أن الحقيقة أن الأمراض السرطانية كانت جزءًا أصيلاً من نسيج كل خلية من خلايا تلك الدولة المريضة من الداخل، والتي جعلتها في درجة أقل حتى من حد الهزال.. لكنها كانت تتجمل لتبدو عكس حقيقتها .. لكنها انكشفت على حقيقتها الواقعية في أول مواجهة جادة مع الأطماع الأوربية.

وقد كانت الدولة العباسية قد بلغت مع بدايات القرن التاسع الميلادي -الثالث الهجري- درجة كبيرة من الشهرة ترتكز على واقع عملي يتمثل في ازدياد نفوذها السياسي والبأس في قوتها.. وكان الخليفة العباسي الجالس على كرسي عرشه في بغداد يأمر فيستجاب إلى كل طلباته داخل كل ركن وزاوية وشبر من كل أرجاء دولته المترامية الأطراف، والممتدة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي..

وللدلالة على قوة الدولة العباسية في هذا الوقت أنها استطاعت كسر شوكة الدولة البيزنطية .. وفي هذه الفترة اعتاد الخلفاء العباسيون واحدًا تلو الآخر على إرسال جيوشهم بشكل دوري في الصيف وفي الشتاء بغرض التوغل في أرض آسيا الصغرى من أجل قمع أي محاولة قد تقوم بها الدولة البيزنطية لتهديد حدود الدولة العباسية.

وبمرور الوقت مع استمرار هذا الوضع أدرك قادة الدولة البيزنطية واحدًا تلو الآخر أن إمكانياتهم وقدراتهم لا تسمح لهم بمواجهة جيوش دولة الخلافة العباسية.. لذلك هداهم تفكيرهم إلى ضرورة شراء الصلح مع الدولة العباسية عن طريق دفع جزية ضخمة تدفع سنويًا إلى كرسي الخلافة للدولة العباسة حتى تكف عن حريهم.

ومع انتصاف القرن العاشر الميلادي أصبح الخليفة العباسي ضعيفًا، وغير قادر على حزم الأمور بنفسه كما كان يحدث سابقًا، وذلك لاعتماد الخلافة العباسية في هذا التوقيت على الأمراء الأتراك الذين كانوا ينفذون الأوامر الصادرة لهم من الخليفة في حالة واحدة فقط وهي إدراكهم أن هذه الأوامر ستعود عليهم شخصيًا بالعديد من المكاسب سواء كانت هذه المكاسب مادية أو معنوية.

انقسام الدولة:

بالإضافة إلى السبب السابق الذكر، فإن جراح الخلافة العباسية بدأت في التقيح نتيجة قيام العديد من الثورات الدينية والسياسية.. مثال ذلك ثورة القرامطة سنة ٨٩٠م وثورة الزنج جنوب بغداد (٨٧٧ - ٨٨٣).. ثم حدث بعد ذلك كنتيجة لعدم حسم الأمور لصالح الخلافة العباسية أن أصبح الأمر أكثر سوءًا، ومن ثم لم يكن غريبًا أن تبدأ مرحلة ظهور دول داخل الدولة، ومثال ذلك الدولة السامانية (٩٧١ - ٩٨٨)، والدولة الغزنوية (٩٦٢ - ١١٨٦)، والدولة الحمدانية (٩٢٩ - ١٠٠٣).

وكانت أهم البؤر -الدول- السرطانية التي نمت في أحضان الخلافة العباسية وأسهمت بشكل كبير في ضعف دولة الخلافة هي دولة السامانيين حيث إنهم سيطروا على الجزء الشرقي من بلاد فارس -إيران- وكانت أهم المناطق التي يسيطرون عليها : مناطق خراسان، بلخ، ما وراء النهر بالإضافة إلى خوارزم وبخارى وسمرقند.

وقد ظلت هذه الدولة الناشئة تتحكم في هذه المناطق تحكمًا كاملاً معظم أوقات القرن العاشر الميلادي.

أما أمراء الدولة البويهية - وهم أيضًا من أصل فارسي- فقد سيطروا على مناطق كرامان، وخوزستان.. ووصلت درجة قوة هذه الدولة أن تأثيرها قد امتد إلى بغداد نفسها،وهي المدينة المفروض أنها عاصمة الخلافة للدولة العباسية، وقد حدث ذلك بين عامي ٩٤٥، وحتى عام ١٠٥٥ حيث كانوا هم الحكام الفعليين للدولة العباسية.

وعلى الناحية الأخرى فإن الجناح الشرقي للدولة العباسية قد طالته أيضًا الفوضى والضعف حيث نجد أن الدولة الإخشيدية قامت وقويت شوكتها في

مصر، والجزء الجنوبي من الشام.. كما تمكن قادة الدولة الحمدانية من فرض واقعهم على منطقة شمال الشام، والموصل.

وهكذا نجد أن دولة الخلافة العباسية كانت تنتقل من الوضع السيئ إلى ما هو أسوأ.. وللدلالة على ذلك نجد أنه في خلال الفترة من عام ٨٦١ إلى عام ٨٦٩هـ قد تولى منصب الخلافة أربعة خلفاء... وقد مات اثنان منهم مقتولين.. وهما الخليفة المعتز بالله، والخليفة المهتدي بالله.

بيزنطة تعود من جديد

كان من نتيجة التلاصق الجغرافي بين دولة الخلافة الإسلامية، وبين الروم أن الدولة البيزنطية كانت على دراية كاملة بكل ما يحدث من أحداث مهما كانت صغيرة داخل أركان دولة الخلافة التي بدأت علامات الشيخوخة تدب في أوصال جسدها؛ لذلك كان أول شيء فعلته الدولة البيزنطية هو تقليل مبالغ الجزية التي كانوا يدفعونها لدولة الخلافة مقابل استمرار السلام بينهما.. وعلى خط مواز بدءوا في شن بعض الحروب المحدودة مع الدولة المريضة.. وبطبيعة الحال فإن الظفر في أغلب تلك الحروب المحدودة كان من نصيب جيوش الدولة البيزنطية...

ومع توالي انتصارات البزنطيين على العرب زادت ثقتهم بأنفسهم.. وكان من شأن ذلك أن رفعوا من قدر حملاتهم العسكرية التي أصبحت تتسم بكثرة العدد وقوة العتاد، وأصبح هدفهم من وراء هذه الحملات الاشتباك مع القوات العربية الموجودة على أطراف العراق، وأيضًا أطراف الشام من أجل رفع روحهم المعنوية، وتثبيط همم العرب، واستمروا على هذا الحال عدة مرات يقومون بمهاجمة القوات العربية،وينتصرون عليها ثم يرجعون من حيث أتوا.

ومع تكرار هذه الحملات ونجاحهم فيها.. شعروا أن النصر الحاسم قريب

منهم لذلك جهزوا لحملة تحقق الانتصار.. وتحتل الأرض، ولا ترجع إلى بلادها.. وفعلاً نفذوا ما يريدون،وفي اللحظة التي شعروا أن الانتصار حليفهم حدث ما لم يكونوا يتوقعوه.. إذ اندفعت قوة من الأتراك السلاجقة إلى أرض المعركة، وبدءوا في إنزال الضربات المهلكة بجيوش البيزنطيين إلى أن استطاعوا أن يجبروهم على الانسحاب بعد أن قتلوا منهم الكثير، وأسروا أيضًا الكثير.. وقد حدثت تلك المعركة في معركة مانزكرت، وكان قائد الأتراك هو السلطان أرسلان السلجوقي..

طلب المعونة من الغرب

نتيجة لهذه الهزيمة القاسية، والمفاجئة اضطر قادة الدولة البيزنطية إلى إرسال الرسائل التي تطلب معونة الكرسي البابوي بروما، وأيضًا أرسلوا العديد من رسائل الاستغاثة إلى قادة الدولة الكبرى في أوروبا من أجل نجدتهم وإنقاذهم قبل أن ينحل عقد الدولة البيزنطية،وتعلن استسلامها التام والنهائي أمام جيوش العرب والمسلمين.

وقد صادفت رسائل الاستغاثة من البيزنطين هوى البابا.. وأيضًا هوى قادة وملوك أوروا.. وقد كانت أسباب هذا الاهتمام الشديد عند البابا.. وعند الملوك، إن صاحب الكرسي البابوي بروما تحمس بشدة لنجدة أهل بيزنطة حيث أيد على الملأ مطالب البيزنطيين بضرورة إرسال الجيوش الأوروبية لنجدتهم.. وذلك من أجل رغبته الشخصية في إحكام سيطرته على الكنيسة الشرقية- الأرثوذكية- ومقرها الإسكندرية بمصر.. وذلك حتى يكون زعيمًا دينيًا وروحيًا لكل المسيحيين سواء كانوا في الشرق أو في الغرب.

أما السبب الذي دعا ملوك وقادة أوروبا للحماس الشديد لطلب قادة بيزنطة بإرسال جيوشهم إلى الشرق، وهو خروج هؤلاء القادة والملوك من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية الداخلية والتي كانت تضغط عليهم، وتعمل على تهديد

بقائهم على رأس الحكم في بلادهم..

أما الفرسان والأمراء المحاربون فقد وافقوا على تلك الحرب لرغبتهم في تأسيس إمرارات لهم في الشرق لعلمهم بكل ما تحويه أرض الشرق من كنوز وخيرات...

أما التجار.. فقد رحبوا بتلك الحروب بالرغم من أن عبء تمويل تلك الحرب كان يقع جانبه الأكبر عليهم كتجار.. إلا أنهم كانوا موافقين على تحمل هذا التمويل الكبير لرغبتهم في الاستئثار بتجارة الشرق. . والتي كانوا يدركون مدى ثرائه وغناه، وبالتالي فإن استحواذهم على التجارة بالشرق يكفل لهم مكاسب تفوق الخيال تعوضهم عما دفعوه كتكاليف لتلك الحرب..

وهكذا نجد إن كل طرف من الأطراف الأوروبية الذين كان بيدهم القدرة على اتخاذ قرار الحرب قد التقت مصالحهم جميعًا في ضرورة نشوب هذه الحرب، لذلك لم يتردد الجميع في تمويل الجيوش المحاربة.. وقد خرجت الحملة الصليبية الأولى من أوروبا عام ١٠٩٦ .. وسنجد أن أغلب جنود هذه الحملة كانوا من عامة الناس الذين فضلوا الخروج للحرب بكل مخاطرها على البقاء في الفقر المدقع في أوروبا.. حيث كان الأمل أيضًا يحدوهم إلى العيش في جنة الشرق..

حالة تنافر

بمجرد أن وطأت أقدام قادة وجنود الحملة الصليبية أرض الشام حتى ظهر التنافر والتضاد واضحًا بين قادة الدولة البيزنطية، وقادة الحملة الصليبية ، وذلك لأن قادة الدولة البيزنطية من الأرثوذكس قد أدركوا الهدف الحقيقي من مساعدة قادة وكنيسة أوروبا - الكاثوليك- لهم.. وهو رغبة بابا

روما في السيطرة الدينية والروحية على البيزنط.. وعلى ذلك كانت أول مقاومة قاومت رجال الحملة الصليبية على أرض الشام كانت من جنود وقادة الدولة البيزنطية الذين حاولوا منع جيوش كاثوليك أوروبا من التوغل في أرض الشرق!!

لكن الأمر على الأرض الواقع الذي تحسمه القوة الفعلية.. كان أكبر من قدرات وآمال ورغبات قادة الدولة البيزنطية .. وعلى الجهة المقابلة أي عند رجال وقادة الدولة الإسلامية كان الأمر كذلك أكبر من قدراتهم وقوتهم الفعلية.. ورغم ذلك لم يكن الأمر سهلاً أمام الجيوش الصليبية لتوطيد أقدامهم على أرض الشام.. إذ استمروا في الحرب لمدة ثلاث سنوات متتالية استطاعوا في نهايتها تأسيس ثلاث إمارات في أنطاكية، وطرابلس ، والرها .. بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس في القدس بفلسطين.

وبعد ذلك بدأ الصليبيون في إضافة العديد من المدن والقرى، والطرق لتكون تحت نفوذهم وسيطرتهم من أجل ضمان إحكام قبضتهم على المدن التي احتلوها.. بالإضافة إلى قيامهم بإنشاء وبناء العديد من الحصون والقلاع على طول الطرق التي يتحكمون فيها بغرض تأمين جيوشهم وأيضًا اعتبار هذه القلاع والرؤوس هي رؤوس الحراب التي ينقضون من خلالها إلى المزيد من أراضي الشرق.. حتى يستطيعوا تحقيق كامل هدفهم من تلك الحملة.. خاصة وأن الحملة وقادتها قد أدركوا فشل أول أهدافهم في السيطرة على مسيحي الشرق، والعمل على جعلهم تابعين للكنيسة الكاثوليكية في روما.

المقاومة الإسلامية

يجب أن نشير إلى أن أحد أهم أسباب نجاح الحملة الصليبية في بداية وصولها هو حالة الضعف، والتردي الشديدين التي كان المسلمون عليها.. إذ كانوا منقسمين إلى سنة وشيعة وعرب وأتراك.. وللدلالة على غفلة وعدم إدراك

المسلمين للسبب الحقيقي لهذه الحملة هو أن الوزير الأول لمصر وهو الوزير «الأفضل» قد بعث برسالة إلى قادة الحملة في أوائل عام ١٠٩٨ حيث عرض عليهم في هذه الرسالة أن يتحالفوا معه حتى يستطيع القضاء على الأتراك السلاجقة!!!

لأنه قد أدرك خطورتهم على سلطته وأيضًا على مصر بشكل عام.. وحتى يغري الصليبيين بالتجاوب مع أفكاره ورؤيته عرض عليهم في هذا الخطاب أن يكون من نصيبهم أنطاكية.. على أن تكون بيت المقدس تحت السيادة المصرية.

وبينما كان هذا تفكير الوزير الأول لمصر.. سنجد أن حاكم حلب القريب جغرافيًا من أراض المعركة لم يختلف كثيرًا، إذ كان موقفه غير مبالٍ لما يحدث له ويرجع السبب الحقيقي لعدم مبالاته.. هو وجود خلافات شخصية وسياسية بينه، وبين حاكم أنطاكيا.. لذلك لم يحاول أن يساعد حاكم أنطاكيا!!

الصدمة والانتباه

كان يوم سقوط بيت المقدس بمدينة القدس في شهر يوليو من سنة ١٠٩٩ هو البداية الحقيقية لانتباه المسلمين إلى الغرض الحقيقي من الحملة الصليبية - وقد أجمعت كل المراجع المسيحية والإسلامية - حيث قام رجال الصليبيين بقتل أكثر من سبعين ألفًا من أهل المدينة بعد أن دخلتها جيوشهم لدرجة أنهم قتلوا المدنيين العزل الذين دخلوا إلى المسجد الأقصى بغرض الاحتماء به..

لذلك عندما وصلت تلك الأخبار إلى الشعوب العربية.. هاج أفرادها وخرجوا إلى الشوارع وهم يهتفون لحكامهم ، ويطالبونهم بضرورة حرب الصليبيين.. ففي بغداد حلق الناس شعورهم، وبكوا في الشوارع.. ورغم ذلك لم يستطع الخليفة العباسي الموجود على عرشه في قلب بغداد من فعل أي شيء يستطيع به أن ينقذ أراضي دولته.. لأنه كان أضعف في حقيقة الأمر من أن يقوم بنفسه من على كرسيه.

أما في مصر الذي كان جيشها قد خرج في محاولة أخيرة وضعيفة لمحاولة إنقاذ بيت المقدس من السقوط.. إلا أنه قد وصل إلى مسرح الأحداث وأرض المعركة في يوم الرابع من أغسطس.. وهذا يعني أنه قد وصل إلى أرض المعركة بعد انتهائها بحوالي عشرين يومًا..

وكان الوزير الأفضل على رأس الجيش المصري.. ولما أدرك أن الوقت قد فات لعمل أي شيء.. فإنه أرسل مندوبًا عنه إلى الحاكم الصليبي بغرض توبيخه على احتلاله لبيت المقدس.. فما كان من الصليبيين إلا أن قاموا بالهجوم على الجيش المصري، واستطاعوا أن يلحقوا به هزيمة كبيرة في ١٢ من أغسطس.. وعندما تأكد الأفضل من الهزيمة.. هرب من ميدان القتال وعاد إلى مصر..

وبعد ذلك توالى سقوط المدن العربية في قبضة الصليبيين فنجد أن حيفا سقطت في أغسطس عام ١١٠٠، وفي العام الثاني استولى بلدوين الأول ملك بيت المقدس على مدينة أرسوف، وبعد ذلك على قيسارية.. وقبل أن ينصرم عام ١١٠٤ كان قد أحكم قبضته على عكا.ومع سقوط عكا كانت كل بلاد الشام ذات الثقل الاستراتيجي في الصراع الحربي قد سقطت وأصبحت تابعة للصليبيين.

بلدوين الأول في مصر

لم تسكت الدولة الفاطمية الحاكمة في مصر على الهزيمة النكراء التي تلقاها جيشها على يد الصليبيين.. حيث نجد أنها قامت بعدة محاولات للإغارة على المدن الواقعة تحت الاحتلال والسيطرة الصليبية..

وقد أظهرت هذه الغارات المصرية على المواقع الصليبية رغبة المصريين في استرداد ما فقدوه في الشام.. إلا أنها في نفس الوقت قد أظهرت بنفس القدر مدى ضعف وترهل الجيش المصري.

في نفس الوقت بدأ بلدوين الأول في تأمين حدوده الجنوبية مع مصر حتى

يأمن شر غاراتها التي يشنها جيشها من حين إلى آخر... وفي عام ١١١٦ اتخذ قرارًا هامًا، وهو ضرورة مهاجمة المصريين في عقر دارهم، وذلك بعد أن تأكد تمامًا من انهيار قوتهم حيث أرسل حملة عسكرية استكشافية قادها بنفسه، وكان معه مائتا فارس، وأربعمائة من الجنود المشاة.. وعبر سيناء من غزة واتجه نحو العريش، ثم وصل إلى مدينة «الفرما» -بورسعيد حاليًا- واستولى عليها.. وقد أصاب بلدوين الذهول والدهشة عندما دخل إلى الفرما، ووجد أن أهلها قد تركوها وهربوا، وتركوا وراءهم كل ما يمتلكونه من أثاث وأغنا... إلخ فأحرق بلدوين الأول الجامع الكبير بالفرما وسار باتجاه الغرب نحو مصب النيل واستطاع أن يصل إليه..

توقف بلدوين في توغله للأراضي المصرية عند هذا الحد؛ لأنه لم يكن يملك من الجنود والعتاد الحربي ما يجعله قادرًا على التوغل أكثر من ذلك في الأراضي المصرية..

لكن هذه الحملة الاستكشافية أكدت له بالدليل العملي أن الدولة الفاطمية التي تبسط سيطرتها على الحكم في مصر.. هي في الحقيقة دولة ضعيفة بالرغم مما يبدو على شكلها الخارجي من تماسك وقوة.

دور السلاجقة

كان الترتيب النظري لأوضاع القوى المختلفة على الأرض تقول إن الدولة الفاطمية في مصر كان يجب عليها أن تدافع عن جنوب الشام.. وأن تقوم دولة السلاجقة الأتراك بالدفاع عن شمال الشام.. لكن الواقع العملي دل على أن هؤلاء لم يدافعوا عن المناطق التي كان يجب الدفاع عنها، وأن أولئك لم يتحركوا لعمل ما يجب عليهم عمله.

ويرجع السبب في تخاذل وتقاعس هؤلاء وأولئك أن الاثنين كانا من الضعف الشديد، وأن كل معسكر تعصف به الخلافات الداخلية، وهذا ما جعلهم غير

قادرين على الحركة الإيجابية الفعالة، والدليل على ذلك أن السلاجقة قد تمكنوا من إلحاق هزيمة ساحقة بالحملة الصليبية اللمباردية في سنة ١١٠١ في شمال شرق الأناضول، ورغم هذا الانتصار الكبير لم يحاول سلاجقة الدولة الفارسية من استغلال الاضطراب الذي دب في صفوف الصليبيين نتيجة تلك الهزيمة.. بغرض القضاء عليهم في الجنوب..

ورغم ذلك لم يكن الوضع الفعلي بهذا السوء والقبح من جانب المسلمين.. إذ كانت تظهر بين الوقت والآخر بوادر للاتحاد الإسلامي بغرض تحرير أراضيهم، والمثال على ذلك.. ما حدث عندما حاول الملك بلدوين في سنة ١١٠٤ عن طريق مساعدة أمير منطقة الرها له ، الأمير «دي بورج» أن يقوما بغزو منطقة «حران».. فما كان من أمراء المسلمين إلا آن اتحدوا وأزاحوا خلافاتهم جانبًا.. إذ تصالح الأمير جكريش أمير الموصل مع الأمير سقمان حاكم منطقة ماردين، وقد تعاهد الاثنان على أن يبذل كل منهما نفسه لله.. وقد جهز الأميران جيشًا واحدًا بلغ جنوده حوالي عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد.. وقد تقابل هذا الجيش الإسلامي في معركة اسمها حران مع الجيش الصليبي الذي جاء للمنطقة بغرض احتلالها.

وفي هذه المعركة استطاع الجيش المسلم أن يقتل كل أفراد الجيش الصليبي في هذه المعركة بالكامل، وقد كان عددهم عشرة آلاف مقاتل، وكانت درجاتهم الحربية تتراوح ما بين الفارس والعسكر المشاه، كما استطاع الجيش المسلم في هذه المعركة أن يقوم بأسر أمير منطقة الرها الأمير ديب بورج.. وأيضًا العديد من الأمراء الآخرين.

زيادة المشكلات

بدلاً من أن يكون هذا الانتصار الكبير على الصليبيين فاتحة خير لأن يزداد اتحاد وتجمع الأمراء والقادة المسلمين حول بعضهم البعض.. نجد أن العكس هو الذي حدث .. فإن هذا الانتصار قد ساعد على زيادة التباعد بين أمراء وحكام المسلمين!!.. إذ بسبب هذا الانتصار زادت حدة حقد السلطان السلجوقي على الأمير جكرمش.. وفي المقابل فإن الأمير المنتصر رفض إعلان خضوعه لولاية وسلطة السلطان.. وهذا الرفض دفع السلطان إلى الزحف على رأس جيشه لمحاربة الأمير جكرمش.. وفشل السلطان في تحقيق هدفه.. لذلك فكر في حيلة تحقق له ما يريد حيث عهد إلى أحد أمرائه واسمه الأمير جاولي بالقيام بحرب الصليبيين في أطراف العراق والشام.. وتحت هذه الحجة يستطيع جاولي أن يقضي على جكرمش..

استطاع جاولي بالفعل في القضاء على جكرمش، كما استطاع أيضًا أن يطرد الصليبيين من المناطق القريبة من الموصل.. وأعلن نفسه أميرًا على منطقة الموصل وما جاورها من مدن.. وأعلن نفسه أيضًا مستقلاً عن سلطة السلطان السلجوقي..

بمجرد أن علم السلطان بما يفعله الأمير جاولي .. أصدر أمرًا إلى الأمير مودود بالعمل على طرد جاولي من الموصل، وأن يجلس على كرسي حكمها، ثم عليه بعد ذلك مواصلة الحرب ضد الصليبيين.

لم يخيب «مودود» رجاء السلطان فيه، ونجح في طرد «جاولي» من الموصل واستطاع بعد ذلك أن يجمع حوله بعض الأمراء،وسار بهم على رأس جيش كبير إلى منطقة الرها.. والتف حولها وحاصرها حصارًا شديدًا ثم تركها فجأة، واتجه إلى منطقة «حران».. وكان اتجاهه نحو حران مناورة عسكرية رائعة منه.. إذ كان ينبغي أن يخرج خلفه جيش الصليبيين الذي كان محاصرًا في الرها.. وبذلك

يكون قد خرج وابتعد عن قاعدته المركزية، وبذلك يكون مكان القتال هو الطريق الموصِّل من الرها إلى حران، وبذلك يسهل عليه القضاء على جيوش الصليبيين، وقد نجحت خطته، واستطاع أن يهزم الجيش الصليبي الذي كان متمركزًا في الرها هزيمة نكراء.

بداية الجهاد المنظم

بمجرد أن تطايرت أنباء هزيمة الحامية الصليبية في الرها.. أرسل الإمبراطور «الكسيوس كومنين» إمبراطور بيزنطة رسولاً يحمل رسالة إلى السلطان «محمد السلجوقي» يطلب فيها من السلجوقي أن يستمر في محاربة الصليبيين، وأن يعمل جاهدًا على الفتك بهم، والعمل على أن تستمر الأعمال العسكرية ضدهم حتى يتم طردهم من كل أراضي الشام.. كما طلب منه أيضًا أن يبتعد عن التراخي والكسل في أمرهم.

ويرجع السبب الرئيسي لتوجيه تلك الرسالة من إلكسيوس إلى السلجوقي أن البيزنطيين وعلى رأسهم إلكسيوس أدركوا أن الصليبيين يحاولون إجبارهم على ترك المذهب الأرثوذوكسي الشرقي، ويتحولون إلى الكنيسة الكاثوليكية في روما.

كانت هذه الرسالة عاملاً مهمًا جدًا من أجل أن يبدأ السلجوقي في التفكير الجاد من أجل التحرك نحو القضاء على الصليبيين.. لذلك نجده قد قرر أن تكون الجيوش المكلفة بمطاردة الصليبيين في كل الشام تحت إمرة ابنه الأمير مسعود، وأن يكون نائبه في قيادة الجيش الأمير القوي «مودود» حاكم الموصل.

عندما شعر السلجوقي أن جيشه أصبح على أتم الاستعداد لتنفيذ الأمر الصادر بطرد الصليبيين أمر بتحرك الجيش نحو الرها لطرد الصليبيين منها..

وصل الجيش بقيادة مسعود ومودود إلى الرها، إلا أنه لم يتمكن من الدخول إليها لقوة دفاعاتها حينئذ قرر مودود أن يعبر الجيش نهر الفرات بغرض

الاستيلاء واحتلال مدينة وقلعة «تل باشر» وبينما الجيش يؤدي المهام الموكلة له بكل همة ونشاط وجدية، وصلت إلى الأمير مسعود رسالة استغاثة من الأمير «رضوان» والي حلب يطلب فيها المساعدة العاجلة لأن جيوش الصليبيين أصبحت على أبواب المدينة وأنه يخشى سقوطها.

عندما علم «مودود» من مسعود فحوى رسالة الاستغاثة من رضوان قرر على الفور أن يتجه على رأسه جيش كبير إلى رضوان لإنقاذه وإنقاذ حلب من السقوط في أيدي الصليبيين.

رأى الأمير رضوان والي «حلب» جيش مودود كثير العدد، وهو واقف في شرفة قصره.. فتصرف تصرفًا شديد الغرابة حيث إنه رفض دخول جيش «مودود» إلى حلب.. وقد أمر جنوده بإحكام إغلاق أبواب المدينة على نفسه ثم قام بفعل أكثر غرابة، حيث أرسل رسله إلى الصليبيين طالبًا منهم أن يتحالفوا معه -بالرغم من أنه أرسل لمودود ومسعود رسالة استغاثية ليتم إنقاذه من الصليبيين-.

ويرجع السبب في هذا الموقف الغريب والمشين من رضوان إلى خوفه على كرسي عرشه في حلب من مودود.. لأن مودود كان صاحب سمعة عسكرية تدوي في الآفاق بعد انتصاراته على الصليبيين.. ولذلك كان مشهورًا بالأمير القوي.

عندما أدرك «مودود» ما يحدث حوله قرر أن يذهب بجيشه إلى دمشق ليرابط فيها ويدافع عنها.. إلا أن أميرها خذله أيضًا بنفس طريقة والي حلب.. وكان تبريره لذلك أنه قد شعر بينه وبين نفسه أن هناك سوء نية من مودود وقواته.. وأن هذه القوات بدخولها دمشق سوف تؤثر تأثيرًا سلبيًا عليه كحاكم لدمشق..

وهكذا فشلت أول محاولة جادة من المسلمين لطرد الصليبيين من أراضي الشام نتيجة الخيانة من حاكم حالب، وحاكم دمشق.

عملية اغتيال نظيفة

بعد دراسة سريعة للموقف من مودود.. قرر الأمير الشجاع أن يعود الجيش إلى الموصل على أن يبقى هو وبعض أقرب معاونيه في دمشق بغرض عقد مباحثات مع أميرها الأمير «طغتكين».. وقصد مودود بهذه المباحثات أن يقوم بوأد مخاوف أمير دمشق منه.. وأيضًا بث الطمأنينة في نفسه من أن كرسي عرشه محفوظ له.. وأن الغرض الأساسي الذي أتى به هو والجيش إلى دمشق هو العمل على جلاء الصليبيين عن بيت المقدس، وكل المدن والبلاد التي حولها .

لم تمر بضعة أسابيع على إقامة مودود في دمشق حتى تم اغتياله، وهو بطل ورمز المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين.. وجاء اغتياله عندما كان يهم بالدخول للمسجد -الجامع- الأموي لأداء صلاة الجمعة.

وقد قام أمير دمشق بإلقاء القبض على قاتل الأمير وأمر رجاله بقتله في الحال دون أدنى محاولة منه لإجراء أي تحقيق مع القاتل لمعرفة من دفعه لقتل مودود، وأيضًا معرفة أبعاد عملية القتل.

لم يكتف أمير دمشق بذلك، بل قام بحرق جثة القاتل، وبذلك يكون قد اطمأن تمامًا إلى الطمس الكامل لمعالم الجريمة التي حمل كل أفرد شعب دمشق مسؤوليتها إليه.. لدرجة أن المظاهرات خرجت في شوارع دمشق تندد بحاكمها، وتحمله مسؤولية قتل مودود.

ونتيجة لاندلاع المظاهرات ضده.. قام حاكم دمشق المذهور بإبرام اتفاقية حماية مع الصليبيين يقومون من خلال بنودها بالدفاع عن حاكم دمشق .

تعديلات في القيادة الإسلامية

عندما وصل خبر اغتيال الأمير مودود إلى السلطان محمد السلجوقي أصابه هم شديد، وحزن كبير.. إلا أنه غالب أحزانه، وأصدر أمرًا بتولي الأمير «أقسنقر» حكم الموصل.. كما كلفه أيضًا باستكمال ما بدأه «مودود».

بعد أن تولى أقسنقر سلطاته طبقًا لأمر السلطان قرر أن يخرج على رأس جيش كبير من أجل أن يهاجم «الرها» وقد ساعده في قيادة الجيش ابنه «عماد الدين زنكي».

وصل جيش المسلمين بقيادة أمير الموصل وابنه إلى «الرها» وحاصروها حصارًا محكمًا.. واستمر الحصار لمدة شهرين كاملين لكنه لم يستطع اقتحام حصونها لأنها كانت قوية التسليح ومتينة البناء.

لما طال الحصار دون اقتحام أصدر السلطان السلجوقي أمرًا بعزل أقسنقر عن حكم الموصل على أن يحل مكانه الأمير «جيوش» وقرر أيضًا أن يقوم الأمير «برسق» المشهور بجرأته وشجاعته، ومهارته في الحرب بتولي قيادة الجيوش من أجل هزيمة الصليبيين.

وكان الهدف الأساسي للسلطان السلجوقي من إجرائه لهذه التغييرات في المناصب السياسية والعسكرية ليس فقط حرب الصليبيين، إنما العمل أيضًا على بسط هيمنة السلطنة السلجوقية على كل الإمارات الإسلامية في الشام والجزيرة العربية، وذلك لأن بعض الأمراء مثل أمير دمشق وأمير حلب، وأمير منطقة ديار بكر استغلوا الفوضى الموجودة في الدولة الإسلامية، وانشقوا على قيادتها عن طريق فرضهم التعاون مع جيوش الدولة الإسلامية كما حدث أيام مودود.

لم يمهل القدر السلطان السلجوقي ليرى على أرض الواقع نتيجة القرارات

التي أخذها بشأن كبار رجال دولته حيث توفي الأمير «برسق» الشجاع متأثرًا بالمتاعب النفسية الهائلة التي ألمت به نتيجة خسارته المعركة الحربية التي دارت بينه وبين الصليبيين عند منطقة «دانيث» ويرجع السبب الرئيسي لهزيمة «برسق» إلى خيانة أميري دمشق وحلب له، وبسبب هذه الخيانة أصبحت دمشق عمليًا ، وكذلك حلب تحت وصاية الجيوش الصليبية.

ساحة الدم

قام سكان حلب بمظاهرات عنيفة ضد حكامهم المسلمين الخونة، وأيضًا الصليبيين الذين كانوا يحكمونهم فعليًا.. وكان من نتيجة تلك المظاهرات الشعبية أن تم تسليم قيادة المدينة إلى الأمير «نجم الدين» حاكم ماردين وديار بكر.. وقد رأى نجم الدين أن عليه أن يحارب الأمير «روجر» حاكم أنطاكية.. لعلم نجم الدين برغبة روجر في ابتلاع حلب عن طريقة القوة العسكرية، وليس عن طريق شراء حكامها بالمال.

لذلك خرج نجم الدين على رأس جيش إسلامي كبير، وتقابل مع جيش روجر في موقعة «البلاط» وفي هذه المعركة أبلى نجم الدين بلاءً حسنًا وانتصر انتصارًا ساحقًا في هذه المعركة حيث استطاع جيشه أن يقتل كل جنود الأمير روجر، واستطاع نجم الدين أن يقتل روجر بنفسه، أما من بقي من جنود «روجر» مصابًا فقد أخذه نجم الدين كأسير حرب، وقد أطلق الصليبيون على المكان -البلاط- الذي دارت فيه المعركة اسم ساحة الدم.

وكانت معركة البلاط أو ساحة الدم علامة بارزة في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي في هذا الوقت إذ كانت أول مرة يستطيع فيها المسلمون أن يفرضوا كلمتهم على الصليبيين، وأن يمنعوهم من اجتياح حلب.

ونتيجة لهذه المعركة الرهيبة التي كان الخاصة والعامة من الطرفين يتحاكون

في تفاصيلها.. نجد أن حاكم دمشق أرسل إلى الوزير الأفضل في مصر رسالة يطلب فيها منه أن يزحف الجيش المصري إلى «عسقلان» ليقابل القوات الدمشقية هناك.

حسب الموعد تقابل الجيش المصري مع الجيش الدمشقي وأصبح الجيشان بمواجهة الجيش الصليبي .. ورغم ذلك لم تبدأ المعركة المرتقبة بينهما رغم عسكرة كل طرف بمواجهة الطرف الآخر لمدة ثلاثة أشهر كاملة، ويرجع السبب في ذلك إلى رغبة الطرف المصري في عدم الدخول في مواجهة عسكرية كبيرة مع الجيش الصليبي الخارج لتوه من هزيمة نكراء في ساحة الدم.. وبذلك أدرك قادته أن الجيش الصليبي سيكون متحفزًا أكثر من اللازم في حال وقوع معركة مع الجانب المصري، ولذلك حاول الجيش المصري تجنب هذه المعركة حيث إن خسارته فيها كانت ستجر مصر وجيشها إلى العديد من المشاكل الداخلية والخارجية.

أما الجيش الصليبي فقد كانت أخبار وحكايات معركة ساحة الدم الذي خسر فيها كل جنوده، وقائدهم الذي اشترك في تلك المعركة فإنه كان هو الآخر خائفًا من مواجهة الجيش المصري المعروف عنه بسالته،وقوته وقدرته الهائلة في الحرب.. وبالتالي كان خائفًا من الخسارة أمامه.. التي إن حدثت ستكون إعلانًا عن انتهاء الوجود الصليبي في الشرق المسلم.

وهكذا نجد أن إرادة طرفي المعركة قد تلاشت في عدم المخاطرة بنشوب القتال، ولكل طرف أسبابه الوجيهة من وجهة نظره...ولذلك نجد أن كل جيش عاد من حيث أتى دون الدخول في قتال.

وفي نفس الوقت فإن كل جيش كان في قرارة نفسه يشعر أنه قد حقق الذي يرجوه ويتمناه.

الشباب يحكم

تولى الأمير «عماد الدين زنكي بن أقسنقر» حكم الموصل وكان شجاعًا ويمتلك الجرأة،والمهارة اللازمة للقائد العسكري .. لذلك نجده بمجرد أن تولى حكم الموصل حتى نظم جيوشه، وخرج على رأسها واتجه إلى منطقة حران تلك المنطقة التي استعصت على كل الأمراء والقادة المسلمين من قبله حيث لم يستطع أي قائد من قادة المسلمين اقتحامها، وطرد القوات الصليبية منها.

لكن عماد الدين زنكي خرج عن هذه القاعدة واستطاع أن يدخلها، وأن يقهر الصليبيين.. ونتيجة لانتصاره في هذه المعركة فكر عماد الدين في ضرورة توحيد العمل بين الجيوش الإسلامية خاصة بين جيوش مصر، والشام، والعراق.

ونتيجة لهذا التفكير قرر أن يتجه بجيوشه إلى حلب لتكون تحت قبضته خاصة بعد أن غرقت في بحر عميق من الفوضى بعد وفاة حاكمها وفي نفس الوقت الذي فكر فيه عماد الدين في حلب.. كان الصليبيون يضعون حلب في بؤرة اهتماماتهم.. وقد علم عماد الدين برغبة الصليبيين في احتلال حلب.. لكنه بشجاعته أفسد عليهم كل خططهم عندما هجم عليها بغتة، واستطاع أن يستولي عليها، وكان ذلك في عام ١١٢٨ ..

لم يركن إلى الراحة بعد استيلائه على حلب وإنما استمر في حربه من أجل إخضاع الإمارات الإسلامية الصغيرة لتكون تحت لوائه.. وبمجرد نجاحه في تحقيق مخططه.. قرر أن يخلد بعض الوقت من أجل راحة جنوده على أن يتجه بعد ذلك بحربه إلى الجيوش الصليبية.. وقد كلل الله مجهوداته عندما استطاع أن يقتحم حصون مدينة الرها القوية، وترجع أهمية الرها ليس فقط لقوة حصونها، وكثرة عدد أفراد جيشها، وإنما لكونها أول منطقة استطاع الصليبيون أن يحتلوها عندما وطأت أقدامهم الشام؛ لذلك كان استيلاؤه عليها علامة من علامات نهاية الوجود الصليبي في الشرق.

بعد الانتصار أعطى عماد الدين قيادة حلب إلى ابنه الأكبر «نور الدين» ومنح أخاه «سيف الدين» ولاية الموصل، أما الأخ الثالث «نصر الدين» فمنحه حم منطقة حران، وهي تتبع سياسيًا نور الدين..أما شقيقهم الرابع فقد كان طفلاً صغيرًا، وعاش في كنف أخيه سيف الدين في الموصل.

لم يركن الأمير الشاب نور الدين الذي لم يكمل عامه الثلاثين إلى الراحة بعد أن تولى حكم حلب.. وإنما عمل على قيادة الهجمات المباشرة على مدينة أنطاكية الصليبية، ونتيجة لهذه العمليات الحربية المتلاحقة استطاع أن يستولي على عدة قلاع في شمال الشام، مما كان يحتله الصليبيون.

وفي عام ١١٤٧ وصلت إلى الشام حملة صليبية بقيادة الملك لويس السابع إلا أن تلك الحملة فشلت.. وبذكائه الحاد استغل نور الدين هذا الفشل، وهاجم أنطاكيا مرة أخرى واستطاع أن يلحق بأميرها هزيمة نكراء، وكان ذلك في عام ١١٤٩ .. وقد دارت هذه المعركة قرب «إنب» حيث استطاع نور الدين إبادة كل القوات الصليبية التي كانت موجودة على أرض المعركة، واستطاع أن يقتل حاكمها -حاكم أنطاكيا- الأمير ريموند، وكذلك الأمير رينو حاكم كيسوم بالإضافة إلى ابن وفا وهو أحد زعماء الباطنية المسلمين المتحالفين مع الصليبيين.

بعد هذه الانتصارات أدرك نور الدين أن حلم الانتصار الشامل، والكبير على الصليبيين لن يتحقق إلا بانضمام مدينة دمشق بموقعها الاستراتيجي الهام تحت رايته ولوائه، وفي نفس توقيت حلم نور الدين بالتحالف مع حكام دمشق كان هؤلاء الحكام مستمرين في التحالف مع القوات الصليبية؛ لذلك لجأ نور الدين إلى الحيلة ليرد حكام دمشق إلى الحظيرة العربية عن طريق إعلان رغبته في الزواج من ابنة «معين الدين أنر» الحاكم الفعلي والقوي لدمشق، وقد تحقق له ما أراد فهدأت الأمور نسبيًا مع حاكم دمشق.

ومع وفاة «معين الدين» تمنى نور الدين أن تتغير سياسة خلفائه مع الصليبيين

إلا أنهم خذلوه، واستمروا على نهج معين الدين من حيث الانغماس والتحالف الكامل مع الصليبيين، لذلك نجد أن «مجير الدين» عقد اتفاق دفاع عن دمشق مع الصليبيين مقابل أن يدفع ضرائب سنوية للصليبيين حتى يكون تحت حمايتهم الكاملة.

وعلى صعيد جموع الشعب الدمشقي فقد كانوا يرفضون ما فعله حاكمهم.. وقد عبروا عن رفضهم لمسلك قادتهم من خلال إرسال الكثير من ذوي النفوذ والشأن من أهالي دمشق بالرسائل إلى نور الدين، وكان مضمون هذه الرسائل يعمل على حثه على ضرورة مهاجمة دمشق من أجل الإطاحة بحاكمها الخائن مجير الدين، وقد أخذ نور الدين هذه الرسائل مأخذ الجد، وتمكن فعلاً من دخول دمشق، واستطاع التخلص من حاكمها الخائن في عام ١١٥٤ .

وقد كان استيلاء نور الدين على دمشق نقطة تحول هامة في مسار تاريخ الحروب الصليبية.. إذ أصبحت كل المدن الرئيسية بالشام تحت قيادة نور الدين.. وهكذا أصبحت الأمور على المستوى الاستراتيجي متعادلة.

إذ كان الصليبيون يبسطون كامل نفوذهم على شواطئ الشام بالكامل بدءًا من الإسكندرية وحتى غزة.. وفي المقابل نجد أن كل المناطق الداخلية للشام بالكامل قد أصبحت تحت السيطرة الإسلامية ابتداء من الفرات، والرها في الشمال، وحتى حوران في الجنوب، بالإضافة إلى أن سقوط دمشق وعودتها للحظيرة الإسلامية مما اعتبره المعاصرون التمهيد الأساسي والقوي من أجل قيام جبهة متحدة بين الشام في الشمال، والدولة المصرية في الجنوب، وهذه الجبهة ستكون قادرة على مواجهة الصليبيين وطردهم.

الاتجاه إلى مصر

نظرًا للأحداث التي مرت بالمنطقة، والتي نتج عنها أن نور الدين قد بسط كامل نفوذه على المناطق الداخلية لمنطقة الشام.. وأن مصر قد أثبتت التجارب العملية ضعفها.. لذلك نجد أن الملك عموري الأول اتجه بتفكيره نحو مصر.. خاصة أن مصر في هذا التوقيت قد شهدت العديد من الأحداث الدرامية بعد أن مات الوزير الأفضل، وأصبح كرسي حكمها يخلو من أي رجل قوي يستطيع ضبط إيقاع الأمور داخل هذا البلد الغني والقوي بإمكانياته الداخلية والمترامي الأطراف في نفس الوقت.

ونتيجة عدم وجود حاكم قوي لمصر قادر على بسط نفوذه عليها نجد أن مسلسل القتل والاغتيالات في الطبقة الحاكمة المصرية استمر للدرجة التي كان الأب يقتل فيها ابنه من أجل المحافظة على كرسي عرشه، والمثال على ذلك قيام الخليفة الفاطمي «الحافظ» بتعيين ابنه وزيرًا... وبمجرد أن اعتلى هذا الابن كرسي الوزارة حتى بدأ في التآمر على أبيه.. وعندما علم الأب بهذه المؤامرة دس السم لابنه ليتخلص منه!!!

وقد كانت هذه المؤامرات كثيرة للدرجة التي أفرغت الدولة من مضمونها الحقيقي، وأضعفت قوتها الظاهرة بشكل ملحوظ.. ومن ثم فإن تفكير عموري الأول في الاتجاه نحو مصر يمكن اعتباره خطوة من جانبه بغرض تحسين وتوطيد مراكزه الاستراتيجية على أرض المعركة، وحسم الصراع لصالحه.

لكن كان لزامًا على عموري الأول أن يقوم ببعض التحركات بغرض تحسين الوضع التكتيكي استعدادًا للهجوم على مصر، وكان سبيله في ذلك هو الاستيلاء على مدينة عسقلان بسهولة حيث أظهرت له هذه المعركة مدى الضعف المصري، والذي ظهر جليًا في المحاولات الهزيلة التي قامت بها الحكومة الفاطمية في مصر من أجل إنقاذ عسقلان.

وقد دخل الصليبيون إلى عسقلان في شهر أغسطس من ١١٥٣ ، وكان أول عمل قاموا به بعد استيلائهم على المدينة هو تحويل الجامع الكبير للمدينة إلى كنيسة تحمل اسم القديس بولس.

وقد سقطت عسقلان تحت ضربات الملك بلدون الثالث الذي مات بعد ذلك مباشرة، لكنه كان قد أبرم اتفاقًا مع الحكومة الفاطمية الضعيفة في مصر تلتزم بمقتضى هذا الاتفاق بدفع مبلغ مائة وستين ألف دينار سنويًا للصليبيين، مقابل ألا تجتاح الجيوش الصليبية الأراضي المصرية.

بعد موت بلدوين الثالث اعتلى عموري الأول حكم الصليبيين، وكان يرغب من داخله في اجتياح مصر، واحتلالها خاصة بعد النجاحات المتتالية لنور الدين في الشام.. لذلك اتخذ من عدم وفاء الحكومة الفاطمية في مصر بدفع الجزية المتفق عليها مبررًا قويًا لغزو دلتا مصر في عام ١١٦٣ .. وزحف بجيوشه حيث وصل إلى مدينة بلبيس بالقرب من القاهرة.. لكن القدر كان رحيمًا بالمصريين إذ فاض النيل واستطاع المصريون استغلاله لصالحهم وأجبروا عموري الأول على الانسحاب مرة أخرى إلى فلسطين.

وبالرغم من فشل هذا الغزو الصليبي على مصر إلا أنه فتح عيونهم على الخيرات التي تعج بها البلاد.. كما أن هذا الغزو قطع الشك باليقين من حيث إن مصر فعلاً ضعيفة، وأن احتلالها والاستيلاء عليها أمر سهل.

تكتيك مضاد

عندما علم نور الدين في الشام بما فعله الصليبيون بمصر.. أسرع بتجهيز جيش بدأ في القيام بشن العديد من الهجمات على الحاميات والقلاع الصليبية في الشام؛ ليجبر الصليبيين على توجيه مجهودهم الرئيسي نحو حماية هذه القلاع، والحصون التي توشك على الوقوع في قبضة نور الدين.. بكل ما كان

يعنيه ذكر اسمه الذي كان مرادفًا للخوف والهزيمة منه.

وكان لمحاولة الصليبيين دخول مصر أثر كبير على تفكير نور الدين إذ أدرك وتأكد من أنه على مقربة من سباق مرير قد يكون طويلاً مع الصليبيين من أجل الاستحواذ على مصر قبلهم.. وذلك لإيمانه العميق والكبير من أن من يفوز منهم بمصر ستكون له الغلبة والانتصار النهائي.

ونتيجة لاقتناع نور الدين بهذه الحقيقة .. أبعد عن تفكيره أي محاولة للتردد الذي يمكن أن يمنعه من محاولة السيطرة على مصر.. ونتيجة لذلك الحسم في التفكير أرسل نور الدين حملة عسكرية إلى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه.

الفرخ الصغير يظهر

خرج أسد الدين شيركوه على رأس جيش نور الدين متجهًا نحو مصر بكل ثقة وعزم، وقد اصطحب معه في هذه الرحلة ابن أخيه صلاح الدين كمساعد له في قيادة الجيش، لما كان يتمتع به الفرخ الصغير من فكر عسكري رفيع المستوى، وذكاء متقد، وهدوء في الشخصية مع حكمة في التصرف.. ويغلف كل ذلك شخصية قوية رزينة..

وقد كان هناك الكثير من المآخذ التي أخذها نور الدين وكبار رجاله على أسد الدين شيركوه عندما عرفوا أنه اختار الصغير صلاح الدين كمساعد له في قيادة الجيش، وكانت كل الاعتراضات على وجود صلاح الدين كنائب لقائد الجيش تنصب كلها في خانة صغر السن.. إلا أن أسد الدين دافع بضراوة عن اختياره وارتكز في دفاعه على القدرات العسكرية الهائلة التي كان يتمتع بها صلاح الدين، ويعرفها عنه الجميع بالرغم من صغر سنه.

بعد حسم أمر سفر صلاح الدين كنائب لأسد الدين.. أخذ الجيش يسرع

الخطى نحو مصر، وقلل كثيرًا من فترات الراحة التي يتم منحها للجنود.. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الأخبار قد تطايرت بأن الوزير ضرغام وزير مصر قد أرسل رسالة إلى الصليبيين يدعوهم فيها لعقد حلف مع مصر وطبقًا لهذا الحلف تكون مصر ولاية تابعة للتاج الصليبي، ومن ثم تحت حمايتها وتدافع عن سياساتها.

وفي ذات الوقت كان الوزير «شاور» قد لجأ بنفسه إلى نور الدين حيث طلب منه ضرورة تسيير تلك الحملة العسكرية إلى مصر حتى يقطع على الصليبيين أي فرصة لاحتلال مصر.. وعرض شاور على نور الدين أن يكون ثلث الدخل السنوي لمصر من نصيبه على أن يوافق نور الدين على بقاء شاور حاكمًا بمفرده على مصر، والتي ستكون في هذه الحالة تحت هيمنة نور الدين لكل هذه الأسباب اجتاز أسد الدين الصحراء دون راحة.

وكلل الله جهوده بأن وصل إلى منطقة تل بسطا قبل الصليبيين.. وبمجرد أن استقر أسد الدين وجيشه في مصر على أرض تل بسطا، حتى فوجئوا بجيش من مصر قد خرج لقتالهم وعلى رأسه ضرغام.. الذي لقي هزيمة ثقيلة وقتل أثناء محاولته الهرب من ميدان المعركة بعد تأكده من هزيمة جيشه .. ونتيجة لهذه المعركة أصبح الوزير شاور هو الوزير الوحيد المهاب في مصر.

عندما استقرت الأمور على هذا الحال بدأ أسد الدين شيركوه في مطالبة شاور بضرورة الإسرارع بدفع المبالغ المالية المتفق عليها.. فما كان من شاور إلا أن تنصل من الوفاء بوعوده السابقة.. ووصل به الحال إلى أنه قام بإرسال العديد من الرسائل إلى عموري الأول يطلب فيها منه أن يرسل جيوشه ليطرد أسد الدين شيركوه ورجاله مقابل أن يمنحه مبالغ مالية طائلة نظير قيامه بهذا العمل.

معركة نتيجتها صفر

عندما علم أسد الدين شيركوه بأمر رسائل شاور إلى عموري الأول قرر أن يتجه بجيشه إلى منطقة بلبيس، وأن يحتلها وفي أثناء توقيت احتلاله لبلبيس كان جيش عموري الأول قد وصل إلى منطقة بلبيس، وهكذا أصبح جيش عموري الأول في مواجهة أسد الدين شيركوه .. وتوقع الجميع أن يعلو ويرتفع وطيس المعركة من أجل أن يفرض الفائز كلمته على مصر إلا أن واقع الحال على الأرض كان له رأي آخر .. إذ خاف عموري الأول أن يبادر أسد الدين شيركوه بالهجوم فيخسر المعركة خاصة أنه رأى بعينه مدى قوة جيش أسد الدين.

وفي المقابل لم يتحمس أسد الدين لبدء المعركة، وأن تكون له الكلمة الأولى في إشعال شرارة بدئها؛ لأنه وجد أن عليه أن يحارب جيش عموري الأول وأيضًا جيش شاور.

ونتيجة لهذا الموقف المتأزم والخوف الذي لازم أطراف الصراع كان لابد من التدخل السياسي لحسم الأمر، الذي فشلت السيوف في حسمه لذلك تم عقد اتفاق يلتزم به أسد الدين، وكذلك عموري الأول، وكانت أهم بنود هذا الاتفاق أن يغادر الجيشان مصر، وأن يدفع شاور مبلغ ثلاثين ألف دينار إلى أسد الدين شيركوه.

وقد كان صلاح الدين هو المهندس للوصول إلى هذا الاتفاق بين الطرفين.. مما أثبت أنه بارع في السياسة لكونه قد حقن دماء جيشه، وفي نفس الوقت لم يخسر أمام الصليبيين.. وكان السبب الرئيسي الذي دفع صلاح الدين لنصح عمه بضرورة قبول هذا الاتفاق أن نور الدين قد أرسل جيشًا آخر للهجوم على بعض القلاع، والحصون، والمدن التي يحتلها الصليبيون في غياب عموري الأول.. لذلك كان خوف صلاح الدين أن يتجه عموري الأول إلى حيث توجد جيوش نور الدين ويلحق به الهزيمة.

في كل الأحوال كانت هذه المواجهة السلبية بين أسد الدين وذراعه الأيمن صلاح الدين، وعموري الأول.. سببًا ليتأكد كل طرف منهما وبشكل لا يقبل الجدل أو الشك أو المناقشة أن مصر على المستوى الاقتصادي هي كنز حقيقي لمن يسيطر عليها بالإضافة إلى أهميتها الاستراتيجية في تحديد المنتصر في الصراع بين المسلمين والصليبيين.

كما كان في ذهن صلاح الدين وعمه أسد الدين سبب إضافي آخر لأهمية مصر،وهي أن مصر بدولتها الفاطمية تعتبر مَصدرًا من مصادر تشتت العالم الإسلامي لكونها تتبع المذهب الشيعي بينما كل الدول الإسلامية المجاورة تتبع المذهب السني.

العودة من جديد

في يناير من عام ١١٦٧ خرج أسد الدين شيركوه يساعده صلاح الدين على رأس جيش كبير ، وكانت وجهتهم مصر، واستطاعا دخولها عن طريق الدلتا، وقد استقبل أهالي الدلتا جيش أسد الدين بالترحاب الشديد، وعندما اقترب جيشهما من القاهرة كان جيش عموري الأول في طريقه إلى القاهرة هو الآخر.

أمام الأخبار التي علما بها تشاور أسد الدين مع صلاح الدين، وكانت الخبرة السابقة ماثلة في رؤوسهم.. لذلك قرر الاثنان أن يعبرا النيل من أمام مدينة الفسطاط، ويعسكرا على جانبه بحيث تكون الفسطاط عاصمة مصر أمام أعينهم.

كان الاتفاق الذي أتى بمقتضاه عموري الأول إلى مصر ينص بأن يدفع شاور مبلغ أربعمائة ألف دينار لعموري مقابل طرده لأسد الدين من مصر.. وكان من ضمن بنود العقد أن يحصل عموري الأول على نصف المبلغ مقدمًا، وأن يحصل على النصف الآخر بعد إتمامه المهمة التي أتى من أجلها.

في هذه المرة عندما التقى الجيشان بدأت جيوش الصليبيين في مهاجمة جيوش أسد الدين.. وعندما اشتد وطيس المعركة فكر صلاح الدين في النزول بجيشه إلى منطقة الأشمونيين بمصر الوسطى عند محافظة المنيا، وذلك لأن ارتفاع درجة حرارة الجو سيضعف من قوة الجيش الصليبي.. وقد صدق حدس صلاح الدين، إذ التقى الجيشان في معركة البابين، واستطاع صلاح الدين الذي قاد الجش فعلاً في المعركة أن يظهر الكثير من قدراته العسكرية، واستطاع أن يهزم الصليبيين الذين انسحبوا عائدين إلى القاهرة.. ولم يستطع صلاح الدين أن يلحق بهم ليهزمهم هزيمة نهائية بسبب قلة الموارد المالية وعدم قدرته على الوفاء بالاحتياجات الكاملة لرجاله من مأكل وملبس.

أثناء فترة الراحة بعد انتهاء المعارك وهزيمة الصليبيين علم أسد الدين شيركوه أن الأسطول الصليبي يستعد للنزول إلى الإسكندرية فقرر أسد الدين أن يتجه الجيش الإسلامي نحو الإسكندرية لمنع الصليبيين من هدفهم.

وصل الاثنان على أس أغلب الجيش إلى الإسكندرية حيث تركوا بعضًا منه في الصعيد.. وفي الإسكندرية رأى أسد الدين أن الأمور مستقرة فقرر أن يغادر الإسكندرية مع بعض سرايا الجيش عائدًا إلى الصعيد على أن يتولى صلاح الدين الجيش في الإسكندرية.

الفرخ يتعرض للمخاطر

بقي الفرخ الصغير داخل قلعة الإسكندرية ومعه ألف فارس فقط، وعندما علم عموري الأول ذلك قام بإرسال أكثرمن ثلاثين ألف من المقاتلين للإسكندرية، وقاموا بحصارها، ثم بدأ الصليبيون في المبادرة بالهجوم على جيش صلاح الدين فاضطر صلاح الدين للدخول في مواجهة عسكرية معهم أبلى فيها بلاء حسنًا إذ استطاع أن يقوم بمناورات تكتيكية رائعة بالعدد القليل من الفرسان الذين معه.. واستطاع أن يلحق بالصليبيين خسائر فادحة.

لكن بمرور الوقت قلت المؤن عند صلاح الدين وأرسل الرسائل لعمه ليقوم بمساعدته في محنته.. وبمجرد أن وصلت تلك الرسائل إلى أسد الدين حتى قرر أن يذهب إلى الإسكندرية لكنه وجد صعوبة كبيرة في الوصول إليها.. مما دفعه إلى عقد صلح مع عموري الأول، وكان مضمون الاتفاق لا يخرج عن الاتفاق الذي عقداه سابقًا.. وهكذا خرج الجيشان من مصر.

وقد كسب عموري الأول كثيرًا هذه المرة رغم خروج جيشه.. وذلك لأنه وضع مصر، أو شاور تحديدًا تحت الحماية الصليبية، وأن يحصل من شاور على مبلغ مائة ألف دينار سنويًا، بالإضافة إلى وجود مندوب عنه يشارك شاور في حكم مصر.

وبالرغم من عدم قدرة الفرخ الصغير صلاح الدين على تحقيق الانتصار على جيش عموري الأول في الإسكندرية إلا أن المعارك التي خاضها رغم حصادر المدينة،وقلة عدد مقاتليه بالمقارنة بجيش عموري الأول أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن النسر الصغير يستطيع أن يحلق بعيدًا عن الأخطار، وأنه قادر على رؤية الأمور من أعلى أثناء طيرانه.

قلق شاور

بدأ الوزير شاور يحس بضغوط الصليبيين عليه حيث كانوا يتدخلون كثيرًا في عمله عن طريق مندوبهم المقيم بالقاهرة.. كما أن الشعب المصري بكل فئاته بدأ في إظهار معارضته لسياسات الوزير شاور لأنها جلبت عليهم الخراب، إذ كان الجنود الصليبيون المرابطون على أبواب القاهرة يلحقون الأذى بالأهالي حيث كانوا يأخذون ما يحتاجونه من مأكولات دون أن يقوموا بدفع ثمنها، كما كانوا يضايقون أفراد الشعب أثناء تأديتهم لصلواتهم في المساجد.

لذلك اضطر شاور تحت هذه الضغوط، ومن أجل المحافظة على وزارته في

مصر باعتبار أنه حاكمها الفعلي والحقيقي بالقيام باتصال مفاجئ بنور الدين طالبًا منه المساعدة في تخليص مصر من الحماية الصليبية، ولتأكيد جديته هذه المرة ورغبته في عدم نقض الاتفاق فإنه عرض على نور الدين أن يتزوج ابنه من أخت صلاح الدين، أو يتزوج صلاح الدين من ابنته.

سباق آخر

وصلت تلك الأخبار إلى المعسكر الصليبي، وكان رأي عموري الأول هو عدم العودة مرة أخرى إلى مصر بحملة عسكرية حيث كان رأيه يتجه إلى ضرورة تثبيت الموقف نظرًا للمكاسب الكبيرة التي يجنيها من وراء ذلك.. إلا أن غالبية الأفراد الصليبيين كان رأيهم عكس رأيه حيث طالبوه بالعمل على تأكيد الوجود الصليبي في مصر من خلال الاستفادة من وجود الوزير شاور الضعيف على رأس حكومتها.. لأنهم لن يجدوا فرصة أفضل من تلك.. وحتى هذه اللحظة كان عموري الأول مصرًا على رأيه.. إلا أنه وافق أمراءه على رأيهم عندما تأكدت الأخبار بأن شاور عاد لممارسة لعبته القديمة عن طريق استنجاده بنور الدين.

خرج عموري الأول على رأس جيشه واتجه إلى مصر، ووصل إلى بلبيس، وقد قاومه أهلها مقاومة باسلة فما كان منه إلا أن دمر المدينة بالكامل ودخلها.. وفي نفس التوقيت كان أسطوله قد وصل إلى دمياط لكنه لم يتمكن من التقدم لأن المصريين قد وضعوا الكثير من العراقيل التي تعوق الملاحة في مجرى النهر.

ومن جهة أخرى كان شاور قد أحس بخطورة موقفه أمام الصليبيين نتيجة عدم التزامه بتعهداته أمامهم... فقام بإحراق معسكر الفسطاط حتى لا يجد الجيش الصليبي مكانًا يعسكر فيه.

وفي نفس الوقت كان جيش نور الدين بقيادة أسد الدين، وابن أخيه صلاح الدين قادمًا في الطريق.. وعندما وصلت هذه الأخبار لعامة الشعب خرجت

المظاهرات المؤيدة والمرحبة بأسد الدين.. وانتقلت هذه الروح إلى جنود الجيش المصري، والتي ظهر أثرها في الخسائر الكبيرة التي ألحقوها بجيش عموري الأول مما قلل من قدرته على التقدم نحو القاهرة.

وصل أسد الدين ومعه صلاح الدين بجيشهما إلى القاهرة، وعسكرا في منطقة أرض اللوق.. وعندما دخل عموري بجيشه إلى القاهرة ورأى حجم جيش أسد الدين ومدى استعداده.. طالب شاور بضرورة دفع المبالغ المالية المتفق عليها بينهما حتى يرحل من مصر. وقد وافق شاور على ما طلبه عموري الأول بشرط أن يقوم الصليبيون بسحب حاميتهم المرابطة على أبواب مدينة القاهرة.. وأن يصطحب عموري الأول أيضًا مندوبه الذي يشرف على الحكم في مصر..

وقد اضطر عموري الأولى للموافقة على كل طلبات شاور حتى يبتعد عن الدخول في مواجهة مع جيش أسد الدين القوي.. وهكذا خرج عموري الأول من مصر عائدًا إلى الشام، لكنه خرج هذه المرة وحده بينما بقي في القاهرة جيش أسد الدين وكان ذلك في عام ١١٦٨ .

دفع الحساب

بعد أن غادرت الجيوش الصليبية مصر عمت الأفراح البلاد، وفي نفس الوقت انكشفت أمام الجميع خيانة شاور لأمته، وأصبح لا ملجأ له فاستغل الخليفة الفاطمي العاضد هذا الموقف، وقام باستدعاء أسد الدين شيركوه الذي أصبح أقوى رجل في مصر، وقام بالحصول على موافقات رجال الدين والقضاء والأمراء غير الموالين لشاور، وأعلن أمام الجميع تعيين أسد الدين وزيرًا على مصر، بعد أن عزل شاور من منصبه..

قبل أن تنتهي حفلة تنصيب أسد الدين وزيرًا للبلاد كان شاور قد عاد لممارسة لعبته القديمة، وأرسل إلى عموري الأول رسالة يطلب فيها منه العودة إلى

القاهرة عن طريق البر والبحر.

بعد أن استقرت الأمور لأسد الدين.. قرر شاور أن يدعو أسد الدين وصلاح الدين والخليفة الفاطمي على وليمة غذاء حتى يتنسى له قتلهم عن طريق وضع السم في الغذاء.. لكن أمر هذه المؤامرة قد انكشف عن طريق أحد موظفي القصر فاعتذر أسد الدين شيركوه وصلاح الدين عن حضور تلك الوليمة؛ لأن الخليفة الفاطمي لن يحضرها لمرضه، وأن الواجب يحتم على الجميع القيام بواجب زيارته..

في قصر الخليفة العاضد كان كل أعيان الدولة موجودين وكذلك القضاة، وكبار رجال الدين.. وفي الموعد المحدد وصل أسد الدين وصلاح الدين وشاور إلى مقر الخليفة الفاطمي.

عندما دخل الثلاثة إلى قاعة الخليفة شعر شاور أن هذا الجمع الرفيع من أعظم رجال الدولة يضمر له الشر.. وفعلاً صدق توقعه إذ أقر كل الموجودين بضرورة قتل شاور نظرًا لخيانته، وأجمع كل الحاضرين أن هلاك الإسلام والمسلمين سيكون على يديه خاصة بعد انكشاف أمر الرسالة التي أرسلها للصليبيين، وقد تم تنفيذ حكم الإعدام في شاور وابنه، وهكذا تخلصت مصر من أكبر الخونة الذين حكموها وحدث ذلك في يناير ١١٦٩ .

بإعدام شاور استتب الأمر تمامًا لأسد الدين شيركوه وأصبح الطريق ممهدًا لتعود مصر مرة أخرى إلى المذهب السني، وذلك أن موت شاور حرم الصليبيين من حليف قوي ومهم لهم في مصر..

وكان أخبار قتل شاور واستحكام مقاليد الأمور في يد أسد الدين قد سببت الكثير من المشاكل والألم للصليبيين لعلمهم أن وجود أسد الدين على رأس الحكم في مصر معناه أن نور الدين قد بسط كامل نفوذه السياسي والعسكري

والاقتصادي على كل المناطق الداخلية بالشام، وكل الأراضي المصرية، وهذا معناه تقليل قدرة الصليبيين على المناورة والحركة بحرية في المنطقة إذ أن منطقة نفوذهم هي المناطق الساحلية للشام بالإضافة إلى بيت المقدس..

كما أن خسارتهم الكبرى هي عودة مصر مرة أخرى للمذهب السني، وهذا معناه أنه قد سقطت من أيديهم ورقة اللعب على الخلافات المذهبية بين حكام مصر والشام، وهي اللعبة التي برعوا في استغلالها جيدًا قبل وصول أسد الدين إلى منصب الوزير الأول في مصر.

النسر يبدأ في التحليق

ما إن اعتلى أسد الدين كرسي الوزارة حتى بدأ في دراسة مواطن الضعف والخلل في النظام السياسي المصري، وقد اعتمد في هذا الأمر على النسر الصغير صلاح الدين اعتمادًا كبيرًا.

لكن الأقدار كانت لها رأي آخر، إذ لم يمر شهران على ولاية أسد الدين شيركوه الوزارة إلا ومات.. وكان لموته المفاجئ أثر كبير في حيرة الخليفة العاضد، إذ لم يكن هناك من الأمراء من يمتلك الشخصية القوية التي يخشى منها باقي الأمراء، وبذلك يرتضونه وزيرًا أول على مصر وحاكمًا عليها.

بعد تفكير عميق اتجهت أنظار الخليفة العاضد نحو النسر الصغير صلاح الدين والذي كان قد أوشك أن يتم عامه الثلاثين.. وعندما صرح الخليفة لمن حوله بما يفكر فيه لقي معارضة شديدة منهم.. لكنه أخبرهم أن الأمراء سيخافون صلاح الدين لعلمهم أن الملك نور الدين خلفه وبذلك سيقبلون به وزيرًا عامًا في مصر..

ومن جهة أخرى فإن صغر سن صلاح الدين سيجعله دائمًا يعود إليه -للخليفة- ليستشيره فيما يستعصي عليه من أمور، لذلك اقتنع المقربون بهذا

الاختيار وبدءوا في إعداد الأمور لتسير في اتجاه اعتلاء صلاح الدين كرسي الوزارة.

وكان أول شيء أن أرسل الخليفة أحد خلصائه لإبلاغ صلاح الدين فيما يفكر فيه الخليفة من أمر ضرورة اعتلائه كرسي عرش الوزارة ليكون الحاكم الفعلي على مصر.

وكانت مفجأة الرسول كبيرة عندما فوجئ برفض صلاح الدين لهذا الطلب حيث أخبر رسول الخليفة أن خبرته بشؤون الحكم ضعيفة كما أنه أصغر الأمراء في السن.

عندما علم كبار رجال دولة وجيش الملك نور الدين الذين كانوا قد أتوا مع أسد الدين قاموا بالضغط عليه ليقبل الجلوس على كرسي الوزارة.. وعندما كرر رفضه لهم قاموا باقتياده مكبلاً بالسلاسل إلى مقر إقامة الخليفة الفاطمي، فكان يقول لهم أثناء ذهابهم إلى قصر الخليفة «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة.. بسلاسل».

المهم في الأمر أن صلاح الدين تولى كرسي الوزارة في مصر، وكان أول شيء اتجه إليه تفكيره بعد تحمله عبء مسؤولية حكم مصر أن يعود إلى الدراسات التي كان قد بدأها وقت اعتلاء عمه أسد الدين كرسي الوزارة حيث اقتنع أن الخروج من الأزمة التي تحيط بالدولة المصرية يلزمه البحث الجاد والمنظم عن أسباب خلل نظام الحكم في هذا البلد الكبير والغني.

وقد استفاد صلاح الدين من هذه الدراسات، وكان أول الدروس التي استفادها من هذه الدراسات هي بداية العمل على تقربه من أفراد الشعب حيث سمح لهم بما لم يكن مسموحًا به أيام شاور؛ لذلك قام بتخفيض الضرائب المفروضة على الشعب، وبدأ أيضًا في فك حالة حظر التجوال الليلي التي كان

شاور قد أقرها.

ظهرت استجابة الشعب بسرعة لصلاح الدين حيث بدأ في الدعاء له والتهليل له بمجرد ظهوره وأصبح أئمة المساجد يدعون له من قلوبهم في صلاة الجمعة، وبدأ أفراد الشعب في السؤال الدائم عن موعد مرور موكبه في الشوارع والطرقات، حتى يلقوا عليه التحية وأن ينقلوا له شكواهم.

أما من ناحية الجنود فقد أعطى أوامره بدفع رواتبهم، كما أمر بمنحهم الملابس العسكرية مرتين في العام مرة في الشتاء، والأخرى في الصيف، كما بدأ في عمل نظام يشبه نظام التأمينات الحالي لمن يموت أو يصاب في أحد المعارك، ويصبح غير قادر على إعالة نفسه.. ونتيجة لهذه القرارات فقد أصبح الجنود خلفه.. وقد زادت قوته على المستوى الداخلي نتيجة إرسال الملك نور الدين لتعزيزات عسكريه له، وكانت هذه التعزيزات العسكرية تحت قيادة شمس الدين شقيق صلاح الدين.

وكانت هذه الأحداث تجري تحت سمع وبصر الخليفة الفاطمي العاضد الذي شعر مما يحدث من حوله أن صلاح الدين قد بدأ يسحب سلطان السيادة الفعلية والنفسية من تحته.

لذلك قرر الخليفة العاضد بالاشتراك مع رئيس بلاط قصره على ضرورة العمل على التخلص من هذا النسر الصغير، وكان محور مؤامرتهم مزدوج المعالم.. حيث كانت المرحلة الأولى من المؤامرة هي التخلص من صلاح الدين عن طريق قتله، والمرحلة الثانية من المؤامرة هي ضرورة الاتصال بالملك عموري الأول؛ ليعود من جديد إلى مصر لأن وجوده في مصر يعني بقاءه خليفة على البلاد، بالإضافة إلى تخلصه من جيش نور الدين، ومن صلاح الدين الذي أبدى دهاءً سياسيًا رفيع المستوى لم يكن الخليفة يتوقعه، بالرغم من أنه هو الذي طرح على المقربين منه فكرة تولي صلاح الدين كرسي الوزارة، والحكم في مصر؛ لأنه كان

يعتقد أن صلاح الدين تنقصه الخبرة اللازمة لإدارة بلد بحجم وثقل مصر، وأيضًا يفتقد إلى الحيلة التي تتطلبها ممارسة الحكم والسياسة.

ومن سوء حظ رئيس بلاط الخليفة أن رسالته الموجهة إلى الملك عموري الأول وقعت في يد صلاح الدين فاتخذ قرارًا فوريًا بإعدام رئيس البلاط، ولما علم الجنود الموالون لرئيس البلاط بإعدام قائدهم حاولوا القيام بثورة حيث تجمع منهم حوالي خمسون ألف مقاتل بالفسطاط فما كان من صلاح الدين إلا أن حاصرهم، وطلب منهم الاستسلام أو الموت وأعطاهم مهلة محددة.

عندما انتهت المهلة التي حددها صلاح الدين، ولم يجدهم قد أعلنوا استسلامهم أمر رجاله بإحراق المعسكر الذي يحتمون به فخرج الرجال رافعين سيوفهم بغرض قتال جنود صلاح الدين الذي أمر أخاه شمس الدين بعدم قتلهم، وإنما عليه أن يعمل على تأديبهم ثم إخضاعهم وقد نجح شمس الدين في المهمة التي كلفه بها شقيقه.

ولما رأى الخليفة الفاطمي العاضد ما حدث، وأن الكفة مالت لصالح صلاح الدين ورجاله آثر السلامة، ولم يثر أي فتنة ممكن أن تثير صلاح الدين الحاكم الفعلي والقوي لمصر.

ويرجع السبب في قيام صلاح الدين بقمع تلك الثورة بهذه السرعة، وهذا الحسم أن أعمال الوزير شاور كانت ماثلة في ذهنه بنفس قدر رسوخها في أذهان عامة الشعب من البسطاء.. لذلك كان قراره بضرورة وأد الفتنة،وهي في مهدها لينجو بالبلاد من جو الاضطرابات والتوتر الذي كان سائدًا في فترة حكم شاور، وكان عاملاً هامًا في ظهور الخونة.

ملاحظة هامة

جدير بالذكر أن صلاح الدين رغم جلوسه على كرسي عرش مصر من خلال توليه منصب الوزير في مصر إلا أنه في حقيقة الأمر كان نائبًا عن الملك نور الدين في حكم مصر، وفي نفس الوقت فإنه وزير تحت ولاية الخليفة الفاطمي العاضد.

لذلك فإن ما قام به من عمل بغرض اقتلاع جذور الفساد والفتنة إنما قام بذلك تحت عباءة نور الدين، وبأوامر مباشرة منه، ومن ثم فإن دعم نور الدين استمر بوصف صلاح الدين نائبًا عنه في مصر.

إن صلاح الدين استطاع في فترة وجيزة للغاية من توطيد مركزه بشكل أذهل وأعجب نور الدين.

اتحاد كاثوليكي - أرثوذوكسي

مع نجاح صلاح الدين في وأد الفتنة الكبرى والأولى التي تعرض لها بعد توليه كرسي الوزارة في مصر تأكد أن زمام الأمور ومقاليد الحكم أصبح في يده تمامًا، والأمر الذي دعم موقفه أيضًا في مصر هو قدرته على تحويل مصر للمذهب السني، وبذلك يكون قد وضع مصر بكل ثقلها المادي والجغرافي والاستراتيجي في حالة من التوحد الفكري والمذهبي والسياسي مع الملك نور الدين في الشام.

وقد أدرك الصليبيون عندما حللوا ما قام به صلاح الدين في مصر أنهم أصبحوا في انتظار أيام عصيبة في المنطقة، لذلك أرسل الملك عموري الأول بالعديد من الرسائل إلى إمبراطور ألمانيا، وملوك فرنسا وإنجلترا يطلب فيها منهم ضرورة إرسال دعم عسكري، ومادي بشكل عاجل حتى يستطيع أن يواجه الظروف والأحوال التي استجدت في الصراع مع المسلمين، لكن هذه الرسائل بالرغم من خطورة محتواها قد ذهبت أدراج الرياح نظرًا للخلافات العميقة التي

كانت موجودة بين الكرسي البابوي في روما، وملوك وزعماء أوربا.

لذلك لم يتبق أمام الملك عموري الأول سوى اللجوء إلى الإمبراطور «مانويل كومين» إمبراطور بيزنطة، والذي كان طلب التجاء عموري الأول له بمثابة دخول بيزنطة إلى مجرى الأحداث بقوة بما سيعود عليه، وعلى إمبراطوريته بعدد من الفوائد المباشرة وأهمها العوائد المادية، أما من حيث الأهداف أو الفوائد غير المباشرة هي إظهار مدى تفوق المذهب الأرثوذوكسي أمام المذهب الكاثوليكي، أما الهدف النهائي الذي كان يفكر فيه عندما وافق على طلب الصليبيين هو أن يحل محل الصليبيين في المنطقة.

لذلك نجده قد أمر أسطوله البحري بمغادرة مياه الدردنيل في يوليو ١١٦٩ حيث اتجهت إلى قبرص وانضمت لها هناك بعض الوحدات العسكرية الإضافية ثم واصل بعد ذلك الأسطول البيزنطي إبحاره نحو ميناء صور.

وفي نفس توقيت وصول الأسطول البيزنطي إلى صور أصدر الملك عموري الأول ملك بيت المقدس مرسومًا ملكيًا يتم بمقتضاه منح مبالغ مالية كبيرة من الإيراد المتوقع الحصول عليه بعد النجاح في احتلال مصر إلى كل الفصائل الصليبية والبيزنطية التي ستشترك في عملية الغزو.

النسر يتعثر لكنه ينجح

في يوم ١٦ أكتوبر ١١٦٩ وصل الجيش الصليبي إلى دمياط عن طريق البر، ووصل المدينة الجيش البيزنطي عن طريق البحر.. لكنهم لم يستطيعوا أن يرسوا في ميناء المدينة نظرًا لوجود سلاسل حديدية ممتدة بعرض النيل بغرض منع سفن الأعداء من الوصول إلى المدينة؛ لذلك وقف الأسطول البيزنطي بكامل سفنه وعتاده في البحر أمام سواحل دمياط.

وكان صلاح الدين قد توقع أن يكون هجوم البيزنطيين عن طريق الإسكندرية؛

لذلك حصّن موانيها وشواطئها، وقام بوضع كل جنوده هناك، كما توقع أن يكون الهجوم البري للصليبيين عن طريق بلبيس لذلك قام أيضًا بوضع باقي الجيش هناك.

لذلك كان الموقف عصيبًا عليه حيث خاب توقعه وأتاه الهجوم من حيث لم يستعد، إذ أن جيوشه بكامل عتادها بعيدة عن المسرح الفعلي للمعركة.. كما كان ماثلاً أمام عينيه الثورات التي قامت ضده ونجح في إخمادها، لذلك خاف أن يعطي أوامره للاحتياطي الاستراتيجي للجيش المرابط في القاهرة بالاتجاه نحو دمياط فينقلب عليه الموالون للصليبيين.

لكنه تصرف بهدوء لا يتناسب مع صعوبة اللحظة التي يعيشها، فقام بإرسال عدة رسائل إلى نور الدين يطلب منه سرعة نجدته، وقام في هذه الرسائل بشرح الأخطاء التي وقع فيها، لم يخيب نور الدين أمل ورجاء صلاح الدين، فأرسل له الكثير من الجند الذين استطاعوا دخول دمياط، وهكذا أصبح الحصار الصليبي البري للمدينة غير كامل بالإضافة إلى المقاومة الباسلة التي أبداها أهالي دمياط ضد الصليبيين قبل وصول جنود الملك نور الدين.

وكان أهالي دمياط قد استغلوا جريان النيل من الجنوب إلى الشمال وقاموا برمي الأواني الفخارية التي تحمل موادًا ملتهبة كانت تصيب سفن الأسطول البيزنطي بالأضرار البالغة عندما تصطدم بها.

أما على الأرض فقد كانت الغارات الفدائية لا تنقطع على الجنود الصليبيين مما أدى إلى استنزاف الكثير من قواهم.

وفي نفس التوقيت خرج الملك نور الدين على رأس جيش كبير وقوي وأخذ في مهاجمة البلاد والمدن الصليبية في الشام، واستطاع أن يوقع بها خسائر فادحة، مما دفع الملك عموري الأول عندما وصلته تلك الأخبار الحزينة إلى اتخاذ قرار

رفع الحصار عن دمياط ، والعودة بأقصى صرعة إلى عسقلان حتى يستطيع أن يدافع عن المدن التي يحتلها في الشام، والتي أوشك الكثير منها أن قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في يد الملك نور الدين.

أما السفن البيزنطية التي كانت واقفة في البحر المتوسط أمام دمياط فقد انسحبت عندما رأت جنود عموري الأول تنسحب من أرض المعركة، خاصة أن مشكلة نقص المؤن الغذائية كانت قد بدأت في التفاقم على أسطح السفن الواقفة في مياه البحر مما تسبب في إرهاق البحارة من أثر جوعهم، وقد ظهر نقص الغذاء في هذه السفن أثناء رحلة عودتها إلى بلادها حيث غرق منها الكثير، وذلك بسبب عدم قدرة البحارة على التغلب على المشاكل التي واجهتهم نظرًا لشدة إرهاقهم نتيجة نقص الماء والطعام.

بانسحاب الصليبيين برًا والبيزنطيين بحرًا يكون صلاح الدين قد نجح في منعهم من غزو مصر بالرغم من فشله في توقع اتجاه هجومهم، وكان من نتيجة نجاحه في منع الغزو على البلاد أن فقدت الخلافة الفاطمية أي بارقة أمل في التخلص من صلاح الدين، بل كان هذا الانسحاب إيذانًا وإعلانًا بانهيارها، إذ أن صلاح الدين بدأ في إحلال قضاة المذهب السني بدلاً من قضاة المذهب الشيعي في دور القضاء والعدل، وأعلن صراحة ضرورة دراسة علوم المذهب السني في المدارس وداخل أروقة الجامع الأزهر.

البحث عن طريق بري

كانت أول نتيجة تمخضت عنها الحاولة الفاشلة للغزو الصليبي والبيزنطي على مصر هو ضرورة البحث عن طريق بري آمن يضمن وصول رسائل نور الدين إلى صلاح الدين.

وقد أتى الحل لنور الدين عن طريق صلاح الدين الذي قرر مهاجمة مدينة

أيلة عن طريق البر والبحر في نفس الوقت.. وقد اتبع صلاح الدين خطة عبقرية لتنفيذ هجومه البحري على المدينة حيث بنى الكثير من السفن وحمل رجاله أجزائها قبل تركيبها على ظهور الجمال والحمير حتى وصلت إلى شواطئ البحر الأحمر.. وهناك على شاطئ البحر تم تجميع أجزائها وتم تجربتها وبالتالي أصبحت صالحة للاستخدام.

اتجهت السفن نحو أيلة حيث هاجمها أسطول صلاح الدين، وفي نفس توقيت هجومه البحري كان صلاح الدين على رأس قواته البرية مهاجمًا المدينة، وقد نجح في الاستيلاء عليها، وتم أسر كل أفراد قلعتها الحربية، وتم إرسالهم إلى القاهرة، وكان ذلك في ديسمبر ١١٧٠ .

وهكذا أوجد صلاح الدين الطريق المفقود بينه، وبين نور الدين في الشام.. لكن إنجاز صلاح الدين جعل نور الدين يشعر بالغيرة من تلميذه الصغير الذي بدأ ينضج بسرعة بالإضافة إلى قدرته التامة على توطيد مركزه في القاهرة.

ويرجع السبب إلى بروز الغيرة في قلب نور الدين تجاه تلميذه صلاح الدين أن صلاح الدين بالرغم من قيامه بإنهاء نفوذ المذهب الشيعي في مصر إلا أنه أبقى على وجود الخليفة الفاطمي في مصر، ولم يقترب منه.. بل نجد أن صلاح الدين طلب من أئمة المساجد في مصر أن يدعوا للخليفة في صلاة الجمع..

أما السبب في ذلك هو خوف صلاح الدين من أن يأخذ نور الدين مصر منه لو أقصى الخليفة الفاطمي من منصبه وبالتالي تكون الخلافة الفاطمية في هذه الحالة قد انتهت شكلاً كما انتهت من قبل موضوعًا، وذلك أن صلاح الدين حتى هذه اللحظة يعتبر نائبًا عن الملك نور الدين في حكم القاهرة.

لذلك أراد صلاح الدين أن يكون الخليفة الفاطمي في منصبه في مصر عبارة عن ورقة ضغط يستخدمها أمام أستاذه نور الدين وقت الحاجة.

وجدير بالذكر أن ما كان يفكر فيه صلاح الدين لم يكن بعيدًا عن تفكير نور الدين الذي أرسل لصلاح الدين مع بداية صيف ١١٧١ إنذارًا يأمره بأن يدعوا أئمة المساجد للخليفة العباسي المستضيء بالله بدلاً من الدعاء للخليفة الفاطمي العاضد، وذلك في صلوات الجمع، وفي أيام الأعياد، وأثناء الاحتفالات الرسمية للدولة.

وصلت هذه المكاتبة من نور الدين إلى صلاح الدين والخليفة الفاطمي العاضد في مرض الموت، وبالتالي لم يعلم بما يحدث من حوله، وقد حاول مساعدوه إخباره بما يحدث من حوله أثناء لحظات إفاقته من غيبوبته لكن صلاح الدين منعهم من إبلاغه بأي شيء حيث قال لهم:

«لا تزعجوه وهو مريض، إن مات فلا نكون قد أزعجناه، وإذا شفي وعاش فسيعلم».

الحسم والقدر

الآن قد حدث ما كان يخشاه صلاح الدين.. فها هي الخلافة الفاطمية في مصر قد شقطت بأمر الله، ومن ثم أصبح صلاح الدين حاكمًا لمصر بصفة وحيدة هي كونه نائبًا عن نور الدين في حكم مصر.

لذلك كان على النسر الذي بدأ في التحليق أن يختار لنفسه : هل يظل حبيسًا تحت عباءة نور الدين ؟، أم يخرج من السرب التابع لنور الدين؟

والحقيقة أن النسر في البداية كان حائرًا بين التحليق منفردًا أو الطيران في سرب نور الدين، إذ عندما شعر بأن الأمور سيئة مع نور الدين خرج إلى الإسكندرية حيث تفقد خطوطها الدفاعية الساحلية وفعل نفس الشيء في دمياط، وأيضًا في بلبيس، وقد اعتقد كل من حوله أنه يفعل ذلك تخوفًا من أي هجوم صليبي مفاجئ.. لكنه كان يفعل ذلك مدفوعًا بخوفه الداخلي من قيام نور

الدين بمهاجمته بغتة وهو جالس على كرسي عرش مصر بالقاهرة.

وقد ظهر هذا الخوف في قلب وفكر صلاح الدين عندما أصدر له نور الدين أمرًا بالخروج لمهاجمة حصن ومدينة الشوبك في وادي عربة.. فما كان منه منعًا لزيادة التوتر بينه وبين نور الدين إلا أن خرج على رأس جيش ضخم، وقام بحصار المدينة وقلعتها وأحكم حصاره عليها فشعر من بداخلهما أن الاستسلام هو الحل، لذلك قاموا بإرسال مندوب عنهم يبلغ صلاح الدين الذي كان صبره قد نفد، وبدأ في الإعداد لهجوم مباغت ومفاجئ على القلعة لأخذها بالقوة.. بأنهم -الصليبيين- قد قرروا الاستسلام بعد عشرة أيام كمهلة يجمعون فيها أشياءهم ويرتبون أوضاعهم قبل تسليم المدينة، والحصن للمسلمين.

وافق صلاح الدين على الاقتراح الصليبي لكنه في نفس الوقت شدد من حصاره على المدينة، وحصنها خوفًا من أن يكون العرض الصليبي خدعة منهم لكسب الوقت قبل وصول دعم من عموري الأول لهم.

قبل انتهاء المهلة التي حددها الصليبيون لتسليم المدينة والحصن لصلاح الدين وصلته أخبار مؤكدة أن جيوش نور الدين على مسيرة يوم واحد فقط منه.. ونظرًا لخوفه من غدر نور الدين به ترك حصار مدينة الشوبك، وعاد مسرعًا إلى القاهرة، وكان هذا الانسحاب المفاجئ والسريع منه ناتجًا من شعوره بأن نور الدين سوف يقبض عليه تمهيدًا لعزله من حكم مصر.

برر صلاح الدين في خطاب أرسله لنور الدين يفسر فيه أسباب انسحابه المفاجئ من الشوبك قبل إعلان استسلامها هو الإسراع بمساعدة أخيه شمس الدين في مصر الذي تعرض لمشاكل خطيرة مع بقايا الصليبيين في صعيد مصر.

لم يقتنع نور الدين بالسبب الذي أعلنه له صلاح الدين وبدأ في تجهيز جيوش للزحف بها إلى مصر من أجل تأديب صلاح الدين الذي ما إن علم بما يفكر فيه

نور الدين حتى قام باستدعاء كل الأمراء الموالين له وكذلك أقربائه.

وقد عرض صلاح الدين في هذا الاجتماع مخاوفه التي يخشاها من نور الدين، وقد فوجئ بأن كل الحاضرين وأغلبهم من الشباب قد تحمسوا له على حساب نور الدين .. بل أعلن أغلبهم له بأنهم قادرون على حمايته.

الوحيد الذي رفض هذا الكلام هو الشيخ نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الذي كان صامتًا طوال فترة الاجتماع، وعندما تكلم طلب فض وانتهاء الاجتماع، فانصاع صلاح الدين لأمره، وعندما خرج الجميع من القاعة انتحى الأب بابنه، وهمس له بالنصيحة المخلصة، والتي تلخصت في كونه قد أخطأ خطأً فادحًا عندما جاهر بمكنون صدره، وما يدور في عقله أمام هذا الجمع الغفير من الأمراء، كما نصحه بأن الخطوة الفعية التي يجب أن يقوم بها هي كتابة رسالة إلى نور الدين يخبره فيها أنه ما زال وسيظل على كامل ولائه وطاعته للملك نور الدين، ويخبره أيضًا في تلك الرسالة بأنه سيخرج إلى الشوبك، والكرك وإلى كل البلاد والحصون التي يحتلها الصليبيون بالقرب من مصر، وذلك حتى يثبت حسن نيته لنور الدين.

كما أن عليه أن يرسل مع هذا الخطاب هدية ثمينة، وقد كانت الهدية التي أرسلها صلاح الدين للملك نور الدين عبارة عن بعض الحيوانات النادرة التي تعيش في الصحاري المصرية بالإضافة إلى بعض العطور، والبخور المستوردة من أفريقيا، وبعض الأقمشة من الحرير الصيني، وكذلك بعض المصنوعات الجلدية المصرية.

عندما وصلت رسالة صلاح الدين وهداياه إلى نور الدين، هدأت نفس نور الدين من محتوى الرسالة إلا أن الهدايا لم تعجبه، لكن في كل الأحوال فإن خطة الشيخ نجم الدين أيوب أثمرت عن بقاء صلاح الدين على رأس الحكم في مصر.

طبقًا للوعد الذي قطعه صلاح الدين على نفسه في رسالته للملك نور الدين فإنه خرج على رأس جيش قوي لتطهير الشويك من المحتل الصليبي، واستطاع أن يحكم حصاره عليها، لكن قبل أن تسقط في يده وصلته أخبار عن قرب وصول جيش الملك نور الدين إلى الشوبك، وكما حدث في المرة السابقة فقد غادر صلاح الدين وجيشه أرض المعركة قبل وصول جيوش الملك نور الدين إليها، وذلك لخوفه من أن يغدر به الملك نور الدين، وكان حجة صلاح الدين هذه المرة في الخطاب الذي أرسله إلى الملك نور الدين أنه اضطر إلى مغادرة أرض المعركة عندما وصلته أخبار المرض الشديد لوالده نجم الدين خاصة وأن الرسالة وصفت مرض الشيخ العجوز بمرض الموت؛ لذلك فإنه قرر أن يكون بجوار والده أثناء مفارقته للدنيا.

عندما وصلت رسالة صلاح الدين إلى الملك نور الدين استاء كثيرًا من تصرف تلميذه، وبدأ في التصريح لمن حوله بضرورة العمل على إقصاء صلاح الدين عن حكم مصر، لكن القدر كان رحيمًا بصلاح الدين إذ توفي أبوه فعلاً، وأمام هذا الموقف الإنساني العصيب اضطر نور الدين إلى تأجيل محاولة دخول جيشه لمصر بغرض إقصاء صلاح الدين انتظارًا لانتهاء فترة الحداد.

بعد انتهاء فترة الحداد بدأ نور الدين في تجهيز جيشه من أجل العمل على إقصاء صلاح الدين عن ولاية مصر بالقوة، لكن القدر وقف بجوار صلاح الدين هذه المرة أيضًا حيث مات الملك نور الدين ١١٧٤ وبالتالي لم يستطع أن ينفذ ما كان يفكر فيه، هكذا أصبح صلاح الدين هو النسر المحلق وحده فوق نيل مصر.

التحليق فوق المشاكل الداخلية

لم يهنأ النسر كثيرًا بالتحليق عاليًا دون الخوف من اصطياده أو وقوعه في الأسر، إذ اختلى به ذات يوم الشيخ زين الدين علي بن نجا أحد أئمة الوعظ بالقصر الملكي، وكان من أقرب المقربين إلى صلاح الدين، وأخبره أن هناك

مؤامرة تحاك خيوطها بين جدران قصور القاهرة، وأن أهم أعضاء تلك المؤامرة وزعيمها هو ابن الخليفة الفاطمي العاضد، ومعه القاضي عوريس، وكاتب القصر الملكي وآخرون ممن لهم مصلحة في عودة جو عدم الاستقرار إلى القاهرة مرة أخرى.

ولم يتوقف حديث الشيخ زين الدين على حد توضيح وجود مؤامرة ضد صلاح الدين، بل أخبره بالعديد من التفصيلات المهمة حيث إن بداية تنفيذ المؤامرة تبدأ بهجوم صليبي بقيادة عموري الأول على مصر من ناحية البر، وفي هذه الغزوة فإن الجيش الصليبي سينقسم إلى قسمين أحدهما سيتجه إلى بلبيس، والآخر إلى الفرما.

وفي نفس توقيت هذا الهجوم البري فإن هناك هجومًا بحريًا ستتعرض له مصر من أسطول الملك ولين النورماني ملك صقلية، أما الجزء الثالث من المؤامرة هو قيام المتآمرين بإشعال وإذكاء روح الثورة الداخلية بين أفراد الشعب عن طريق إشعال النيران في دكاكين كبار التجار كما سيعملون أيضًا على منع وصول مياه الشرب إلى أفراد الشعب.

وبالتالي فإن صلاح الدين يكون في هذه الحالة واقعًا تحت تأثير مصيدة ثلاثية الأبعاد، إذ أن عليه أن يواجه جيشًا بريًا على الأرض، وأسطولاً بحريًا يتكون من ستمائة سفينة تهاجم بلاده من البحر، وعدد جنود هذا الأسطول أربعون ألف مقاتل، أما في الداخل فإن نيران الثورة الشعبية تضغط عليه، وبالتالي يستطيع الخونة إقصاءه عن كرسي عرش مصر الذي أحكم قبضته عليها.

قبل تنفيذ المؤامرة .. أرسل الملك عموري الأول مندوبًا عنه إلى القاهرة، والحجة المعلنة لوصول هذا المندوب الصليبي إلى القاهرة هي بحث بعض الأمور مع صلاح الدين، أما الغرض الأساسي من الزيارة هو أن يعقد هذا المندوب

اجتماعات مباشرة مع زعماء التمرد والخونة بغرض وضع النقاط فوق الحروف، خاصة أن هناك تفصيلات لا ينفع بحثها والتشاور فيها عن طريق الرسائل.

وصل مندوب الملك عموري الأول إلى القاهرة، وهو محمل بالهدايا لصلاح الدين الذي استقبله كما هي العادة في مثل هذه الزيارات، لكنه بعث خلفه واحدًامن أقباط مصر.. وكانت الحجة المعلنة من صلاح الدين لوجود هذا الشخص كمرافق للمندوب الصليبي هو قيامه بدور الدليل أو المرشد للمندوب الصليبي أثناء تجواله في مناطق القاهرة، بالإضافة إلى مرافقته في زيارة كل من يطلب من كبار رجال الدولة في مصر.

ولا يخفى على أحد أن هذا المرشد كان همه الأساسي ليس مرافقة المندوب الصليبي إنما العمل على جمع الأدلة الدامغة التي تدين مندوب الملك عموري الأول وأيضًا تدين كبار رجال الدولة المصرية المشتركين في المؤامرة.

بمجرد أن اكتملت الأدلة المادية في يد صلاح الدين أصدر أوامره لرجاله الخلصاء بإلقاء القبض على كل المتآمرين ثم إصدار أمر بإعدامهم، أما المندوب الصليبي فقد تم إيداعه السجن ثم أرسل رسالة إلى الملك عموري الأول يوضح له فيها أن مندوبه مسجون بالقاهرة بتهمة التجسس والاشتراك في مؤامرة إقصائه عن حكم مصر.

عندما وصلت تلك الرسالة إلى الملك عموري الأول تأكد أن كل خططه وأيضًا آماله بغزو مصر واحتلالها والاستيلاء على ثرواتها قد باءت بالفشل، وأن أي محاولة منه لغزو مصر ستكون نيجتها هلاك جيشه، وكان من نتيجة وصول هذه الرسالة له أن أصابه المرض الذي مات بسببه.

ومن ناحية أخرى كانت سفن الملك وليم النورماني قد وصلت أمام سواحل الإسكندرية، لكنه لم يجد أي أثر على بدء الغزو الصليبي لمصر، كما أنه لم يلحظ

وجود أي شكل من أشكال العصيان المدني بين أفراد الشعب المصري ضد صلاح الدين.. لكنه قرر أن يقف بأسطوله أمام الإسكندرية حتى تأتيه أخبار مؤكدة .. وعندما وصلته الأخبار عن طريق الرسائل من عموري الأول تأكد أن موضوع غزو مصر غير ذي جدوى فآثر الانسحاب حتى لا يعرض أسطوله للهلاك، ورغم ذلك فإنه فكر في غزو مصر منفردًا، وهو يمني نفسه بالفوز بها وحده إذا ما نجح في احتلالها.. لذلك أمر بعض سفنه بالعمل على إنزال مقاتليها في ميناء الإسكندرية لكنه وجد مقاومة عنيفة من جانب الجنود المصريين، وكذلك من أفراد الشعب المصري، وكانت من نتيجة محاولته غزو الإسكندرية خسارته للعديد من سفنه وللكثير من مقاتليه، فما كان منه عندما علم بتلك النتائج المخيبة للآمال إلا أن أعطى أوامره لرجاله بضرورة الانسحاب الفوري ورجع عائدًا بأسطوله إلى بلاده.

أما على الصعيد الداخلي فقد أرسل صلاح الدين أخاه العادل سيف الدين إلى صعيد مصر بغرض ملاحقة كل من كان يؤيد المؤامرة ضده، وقد نجح العادل في مهمته التي ذهب من أجلها نجاحًا كبيرًا إذ استطاع أن يقضي على كل المتمردين الذين هربوا إلى صعيد مصر.

وهكذا عاد النسر إلى التحليق مرة أخرى في أعلى أعالي سماء القاهرة دون خوف من أدنى أذى أو مكروه قد يصيبه.. وفي لحظة طيرانه هذه شعر أنه قد أصبح قادرًا على طرد الصليبيين، لكنه أرجأ القيام بتلك الخطوة حتى يتسنى له أن يستكمل الطوبة الأخيرة في جدار وحدة الصف العربي.

وراثة نور الدين

كانت المشكلة الأخيرة أمام صلاح الدين التي إن حلها استطاع مهاجمة الصليبيين هي مشكلة وراثة نور الدين الذي أكدت وفاته أن صلاح الدين هو وريثه العملي والقوي في المنطقة كلها.. إلا أنها في نفس الوقت قد أثمرت تفتيت

دولة نور الدين مترامية الأطراف بين أولاده إذ تولى الملك الصالح إسماعيل الابن الأكبر لنور الدين والبالغ من العمر إحدى عشر سنة الحكم في منطقة حلب ودمشق.. ومن ناحية أخرى نجد أن ابن أخيه سيف الدين غازي حاكم الموصل قد استغل موت عمه - نور الدين- وقام باحتلال نصيبين والخابور، وحران، والرها، وكل الأماكن الأخرى التي كان الملك نور الدين باسطًا نفوذه عليها في الجزيرة.

وفي تطور خطير للأمور نشبت معركة حامية الوطيس بين اثنين من أهم وأقوى أمراء الملك نور الدين، وهما الأمير شمس الدين بن علي ، والأمير شمس الدين بن عبد الملك، وسبب هذه المعركة رغبة كل منهما في أن يكون هو الوصي على الملك الصالح إسماعيل.

ومن جهة أخرى عندما وصلت أخبار تفكك دولة نور الدين إلى الملك عموري الأول نجده قد استغل الفرصة وخرج على رأس جيش كبير وحاصر مدينة «بانياس» لكن المدينة برجالها الأوفياء صمدت لهذا الحصار مدة أسبوعين، وفي هذا الوقت وصل إليها الأمير شمس الدين بن عبد الملك على رأس جيش قوي لكن المفاجأة أنه رفض أن يحارب الصليبيين، وإنما عرض عليهم أن يتركوا المدينة ويعودوا إلى بيت المقدس مقابل أن يفرج عن كل أسراهم المعتقلين في دمشق، كما طلب منهم أن يتعاهدوا معه على الحرب ضد صلاح الدين!!

في البداية رفض عموري الأول هذا الاتفاق، وطلب من شمس الدين أن تكون المدينة تحت ولايته، فما كان من شمس الدين إلا أن أخبره بأنه سيتحالف مع صلاح الدين، والذي لم يأت بجيوشه إلى الشام أثناء حياة الملك نور الدين لأنه كان خائفًا منه.. لكن الوضع الآن تغير فنور الدين قد مات، وأصبح الطريق الآن ممهدًا أمام صلاح الدين وجيوشه للوصول إلى الشام في أي وقت يرغب فيه ويريده.

في حقيقة الأمر كانت إجابة شمس الدين بن عبد الملك إلى عموري الأول فيها الكثير من التهديد الخفي غير المباشر الذي كان له أثر مباشر في أن

يتراجع عموري الأول عن تمسكه بولاية بانياس، وهكذا تم الاتفاق بين شمس الدين وعموري الأول.. لكن القدر لم يمهل عموري الأول في تحقيق كل أهدافه في الشام نظرًا لوفاته السابق الإشارة إليها.

وما زاد من سوء الموقف في هذا التوقيت ظهور الأمير «سعد الدين كمشتكين» كطرف قوي في المعادلة المطروحة على الساحة بعد أن قام بخطف الملك الصالح إسماعيل ونقله من دمشق إلى حلب، كما ألقى القبض على الأمير شمس الدين بن علي، وهكذا أصبح الأمير سعد الدين هو المتحكم الأساسي واللاعب الرئيسي على ساحة دمشق وحلب.

وقد كان للموقف المفاجئ من الأمير سعد الدين أثر كبير في إثارة كم هائل من المخاوف في قلب الأمير شمس الدين بن عبد الملك الذي استنجد بالأمير سيف الدين غازي.. إلا أن سيف الدين الذي كان مشغولاً بملذاته الخاصة في ظل غياب عمه نور الدين بسبب الوفاة لم يلتفت إلى هذه الاستغاثة التي حملت دعوة شمس الدين له بقيادة دمشق، وكان الغرض من هذا العرض هو إثارة حماسته فيستجيب بسرعة لطلب شمس الدين بإنقاذه.

لما تأخر وصول رد سيف الدين، وتأكد شمس الدين من عدم استعداد سيف الدين لدعمه ونجدته اضطر شمس الدين إلى التحالف مع صلاح الدين حيث طلب منه أن يأتي ليتسلم دمشق ضاربًا باتفاقه مع الصليبيين عرض الحائط.

وقد تزامن مع توقيت وصول الدعوة لصلاح الدين لتسلم مفاتيح دمشق أن أعلن القاضي كمال الدين قاضي قضاة مصر فتوى يلزم بها كل أمراء مصر بضرورة رجوعهم في أي أمر من أمور الحكم إلى السلطان صلاح الدين؛ لأنه أصبح بعد وفاة نور الدين غير ملتزم بأن يكون نائبًا لأي من أمراء الشام.

عندما تلقى صلاح الدين دعوة استلام دمشق بدا كما لو كان لم يفاجأ بها،

وإنما أظهر أنه كان ينتظرها، ومن ثم قرر الخروج على رأس جيش كبير إلى دمشق، وقبل تحركه من القاهرة أرسل رسائل لكل أمراء الشام يقول لهم فيها: «لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق فيه بمثل ما كان يثق فيَّ لقام بتسليم مصر إليه، وهي أعظم ولاياته، وأراكم قد أهنتم ابنه لصغر سنه، وأنتم تعرفون أني تلميذ أبيه؛ لذا سأصل إليكم لأكون في خدمة الملك الصالح وأقوم بتأديب كل من خرج عن السلوك الصحيح».

وسنجد أن هذه الرسائل إنما تثبت مدى النضج والحنكة والخبرة السياسية التي وصل إليها صلاح الدين.. وذلك لرغبته في الحصول على دمشق بأقل قدر من المشاكل التي من الممكن أن تواجهه من أمراء الشام الطامعين فيها، خاصة وأنه يعرف أن تسليمه قيادة دمشق لا تعني تحقيق مكسب شخصي له بقدر ما تعني زيادة قدرته على تدعيم موقفه في مواجهة الصليبيين لإدراكه أن وجود هؤلاء الأمراء المهترئين سيكون سببًا قويًا في تفريق كلمة المسلمين وتشتت كيانهم، ومن ثم ضياع أي فرصة للمسلمين في مواجهة الصليبيين من الأراضي العربية التي يحتلونها، وأيضًا تحرير بيت المقدس.

عندما خرج صلاح الدين على رأس حاميته العسكرية متجهًا إلى دمشق لتسلم مفاتيحها ترك أخا الملك العادل نائبًا له في حكم مصر، بمجرد وصول ركب صلاح الدين على أبواب دمشق استقبله أهلها استقبال الأبطال الفاتحين حيث قام الأمير شمس الدين بتسليمه مفاتيح المدينة على أبوابها، وكان أول طلب يطلبه صلاح الدين بعد دخوله دمشق هو القيام بزيارة لمنزل أبيه، وقد أعلن صلاح الدين في كل الأماكن التي زارها في دمشق أنه قد أتى إلى تلك المدينة المحببة إلى نفسه من أجل رد كل حقوق الملك الصالح والدفاع عنه وأيضًا العمل على تربيته كأحسن ما يكون إلى أن يشتد عوده، وحتى يصير يافعًا قادرًا على ممارسة الحكم فإنه سيقوم بتدبير شؤون دولته، وقد كان أول قرار يصدره فور

دخوله دمشق هو تخفيض الضرائب المفروضة على الناس، وكان يهدف من وراء هذا القرار بتسهيل حركة التجارة داخل المدينة، وأيضًا زياردة معدلات التجارة بين المدينة والمدن الأخرى سواء في الشام أو مصر.

لم شمل الشام

مع نهايات عام ١١٧٤ استولى صلاح الدين على مدينة حمص وبعدها بثلاثة أيام اقتحم مدينة حماة، ومع بدايات شهر يناير ١١٧٥ أصبح واقفًا على أبواب مدينة حلب، لكن حكامها رفضوا تسليمها إلى صلاح الدين فبدأ في إحكام الحصار حولها فما كان من حكامها إلا أن أرسلوا رسائل استغاثة إلى الأمير «ريموند الثالث» أمير منطقة طرابلس يطلبون فيها منه أن يتدخل مقابل حصوله على ثمن مغر إذا ما استطاع تخليص المدينة من حصار صلاح الدين.

لم يهمل أو يتهادن ريموند الثالث في الاستغاثة الحلبية، وإنما سارع بتنفيذها لذلك هاجم بعض المدن والقلاع في حماة وحمص حتى يجبر صلاح الدين على تخفيف حصاره عن حلب.

ويرجع اهتمام ريموند الثالث بالاستغاثة الحلبية الذي كان في هذا التوقيت الوصي على عرش بيت المقدس إلى إدراكه مدى خطورة أن تكون مدن حلب، حماة، حمص تحت قبضة صلاح الدين الذي أصبح الرجل القوي الذي لا ينازع على مصر.

وقد اتبع ريموند الثالث طريقًا آخر موازيًا لطريق الحرب وهو العمل على إيجاد حل سياسي للأزمة مع صلاح الدين لذلك أرسل له رسالة يخبره فيها أنه راغب في عقد صلح مع المسلمين، وفي نفس الوقت لوح لصلاح الدين بمدى قدرة وقوة الصليبيين الذين تماسكت جبهتهم الداخلية .. وذكر صلاح الدين بحجم الخلافات والنزاعات الإسلامية في الشام والتي من المؤكد أنها تسبب له

-لصلاح الدين- الصداع في رأسه.

كان رد صلاح الدين على رسالة ريموند الثالث هو إرسال جيوشه لمهاجمة مدينة أنطاكيا حيث استطاع جنوده من تدميرها وقاموا بأسر عدد كبير من جنود حصنها، فما كان من ريموند إلا أن قام بمهاجمة حمص فاضطر صلاح الدين إلى إنهاء حصاره لحلب من أجل العودة إلى حمص لتأمينها، واستطاع فعلاً أن يحقق ما أراد حيث استطاع أن يرد الجيش الصليبي عن حمص.

نتيجة لفك حصار حلب كافأ حاكمها الأمير ريموند بأن أعطاه كل الأسرى الصليبيين الموجودين في حلب، وكان على رأس هؤلاء الأسرى الفارس الشهير الأسير رينو دي شاتيون الشهير باسم أرناط.

لم يضيع ريموند الثالث الوقت هو وحليفه حاكم حلب.. إذ قرر الاثنان ضرورة الزحف بجيوشهما إلى دمشق بغرض إلحاق الهزيمة بصلاح الدين التي تكون سببًا مباشرًا في طرده نهائيًا من الشام، لكن صلاح الدين فاجأهم في منتصف الطريق عند حماة ودارت معركة كبيرة استطاع فيها صلاح الدين أن يبرز الكثير من مواهبه العسكرية كقائد وأن يظهر رجاله مدى شجاعتهم لذلك استطاع أن يلحق هزيمة ثقيلة بجيش ريموند وجيش حاكم حلب، وقد استطاع أن يأسر من جنودهما الكثير، ثم اتجه بجيشه نحو حلب، ودخلها بالقوة بعد أن قهر الحامية التي كانت تدافع عنها، وكان أول شيء فعله بعد أن دخلها هو قيامه بإزالة اسم الملك الصالح من على العملة، ومن ثم أصبح اسمه هو الذي يُدعى له على منابر المساجد بصفته حاكم مصر والشام.

وبالإضافة إلى انتصاره في الشام فإن الخليفة العباسي في بغداد أرسل له خطاب تأييد كما أرسل له الهدايا التي يمنحها كخليفة للمسلمين إلى الحكام التابعين له، وقد كان لهذه الهدايا ولخطاب التأييد أثر كبير في تأكيد وترسيخ مكانة صلاح الدين الدينية والمعنوية عند جموع شعب الشام، ومصر لأن وضعه

على أرض الواقع كان يعلن عن نفسه صراحة.

مصيدة ثلاثية الأبعاد

لم يهنأ النسر طويلاً بالطيران الهادئ فوق أراضي الشام إذ سرعان ما قرر أصحاب المصالح التي قضى عليها العمل على مضايقته ووضع الفخاخ في طريقه بغرض وقوعه والخلاص منه.

وكان سيف الدين غازي حاكم الموصل هو أول من بادر بإعلان رغبته في زعزعة وضع صلاح الدين لذلك أرسل إلى الموالين له في حلب عدة رسائل أنبهم فيها على سرعة رضوخهم لصلاح الدين، وفي نفس الوقت أغراهم بالخروج من قبضة صلاح الدين.

وفي نفس الوقت أرسل إلى ريموند الثالث حاكم طرابلس والوصي على عرش بيت المقدس يطلب منه أن يتحالف من أجل القضاء على شوكة صلاح الدين التي أقلقت مضاجع كل من بالشام من الخونة والصليبيين.

ومن أجل إثبات حسن نيته في العرض المقدم منه قام بالإفراج عن كل الأسرى الصليبيين الموجودين في سجونه وعندما رأى الأمير سعد الدين كمشتكين هذا الحلف جهز قواته وطلب من غازي، ومن ريموند أن يقبلا التحالف معه.

وافق غازي وريموند على طلب سعد الدين حيث قرر الثلاثة الخروج بجيوشهم نحو دمشق، وقد وصلت أخبار هذا الاتفاق إلى صلاح الدين الذي لم تهتز له شعرة مما يدبر له، وإنما قام باستدعاء بعض من فيالق جيشه الموجود في مصر، وقرر أن يخرج ليقابل الجيوش الثلاثة قبل أن يصلوا إليه.

تقابل الفريقان عند منطقة تل السلطان بين حلب وحماة، واستطاع صلاح الدين أن يسحق جيوش التحالف ثم اتجه شمالاً بغرض قطع طريق المواصلات بين الموصل وحلب.

وبعد ذلك حاصر حلب، ولما طال الحصار عرض مساعدوه عليه أن يقوم باقتحام المدينة عنوة، لكنه رفض هذا الاقتراح، ووافق على عقد صلح مع أهلها، بينما كان عائدًا إلى دمشق عسكر مع جيشه ليستريح من عناء السفر، والقتال والحصار، فإذا بأحد الأشخاص يدخل في خيمته ويحاول اغتياله من خلال طعنه بخنجر أصابته في رأسه إصابة غير مؤثرة وقد تم إلقاء القبض على القاتل وإعدامه.

بتقصي الحقائق علم صلاح الدين أن الذي حاول اغتياله فرد من طائفة الباطنية، ومقر إقامتهم مدينة حصياف بجوار حلب، فخرج على رأس جيشه وحاصرها، ولما رفض أهلها الاستسلام قام بضربها بالمنجنيق، ونتيجة لهذه الضربات الموجعة قتل منهم الكثير، وتم تدمير مدينتهم تقريبًا بالكامل، وقد أخذ صلاح الدين أبقارهم وأغنامهم.

في تلك الأثناء قام بلدوين الرابع ملك بيت المقدس بالاتفاق مع ريموند الثالث الوصي على العرش بمهاجمة إقليم البقاع مستغلين في ذلك انشغال صلاح الدين بفتح حلب وهجومه على بلدة مصياف إلا أن أخاه شمس الدين ونائبه على دمشق خرج على رأس جيش قوي لمقابلة الصليبيين حيث قابلهم في منطقة «عين الجر» بالقرب من بعلبك وقد استطاع هزيمتهم، وقد وصلت أخبار إلى أرض المعركة تعلن عن قرب وصول صلاح الدين على رأس جيشه.

عندما سمع تلك الأخبار بلدوين الرابع، وريموند هربا بجيوشهما من أرض المعركة، وكان من رأي شمس الدين أن يقوموا بملاحقة الصليبيين إلا أن صلاح الدين رفض توسيع النطاق الجغرافي للمعركة حتى لا تتشتت جهوده على ثلاثة جبهات الأولى هي جبهة حلب، والثانية جبهة مصياف، والثالثة هي جبهة الصليبيين، خاصة أنه كان يريد العودة إلى مصر بأقصى سرعة لأجل تقوية دفاعاتها كهدف رئيس له، بالإضافة إلى رغبته في الحصول هو ورجاله على

قسط من الراحة بعد المعارك الكثيرة والمتتالية التي خاضها هو وجيشه، وهكذا عاد صلاح الدين إلى مصر بعد أن استطاع التخلص من ذلك الفخ الثلاثي الذي كاد أن يفتك به.. وقد كانت عودته إلى مصر بعد هذه المعارك والانتصارات ورأسه يدور بها تفكير وإيمان بضرورة التجهيز للمعركة الفاصلة مع الصليبيين.

العودة إلى القاهرة

عاد صلاح الدين إلى القاهرة وذهنه مشغول بما هو آت لأنه أدرك أن ما حققه وأنجزه على أرض الواقع في رحلته الأخيرة إلى الشام قد وضعه بشكل عملي كهدف أساسي لكل الأعمال العسكرية الصليبية القادمة لكونه قد أصبح الخطر الحقيقي والوحيد والقوي الذي يهدد وجودهم وكيانهم على أرض الشرق.

ومن ناحية أخرى أدرك أن القدر قد وضعه في موقف تحمل المسئولية التاريخية أمام الله وشعبه ونفسه من أجل طرد الصليبيين بعد أن دانت له تقريبًا كل ولايات الشام، وأصبح بشكل عملي على أرض الواقع الوريث الوحيد والقوي للملك نور الدين، كما أن تفكيره كان مشغولاً وبشدة في ضرورة وجود تأمين النظام الدفاعي عن مصر سواء كان هذا التأمين على مستوى منع نشوب الثورات الداخلية ضده، والتي كانت في حقيقة الأمر يخشى اندلاعها من فلول الفاطميين المقيمين بمصر، أو على المستوى الخارجي من ضرورة تأمين السواحل المصرية أو الاتجاه البري الشرقي الذي يأتي منه الخطر على مصر.

لذلك نجده بمجرد أن استقر به المقام في القاهرة حتى قام باستدعاء أمهر المهندسين وطالبهم بسرعة اختيار مكان يصلح لبناء قلعة حصينة يستطيع فيها أن يدافع عن القاهرة، وقد أتته فكرة بناء القلعة من خلال مشاهداته للحصون والقلاع المقامة في كل مدن الشام سواء الواقعة تحت السلطة الإسلامية أو التي تقع تحت الاحتلال الصليبي.

ومن شدة حرصه على بناء القلعة كان يخرج مع المهندسين لمعاينة الأماكن التي اختاروها لبناء وتشييد القلعة، وفي نهاية المطاف اختار هو موقع بناء القلعة التي أطلق عليها اسم قلعة الجبل، والمعروفة الآن باسم قلعة صلاح الدين.

وكان اختياره لموقع بناء القلعة يدل على مدى عبقريته العسكرية حيث إن مكان القلعة كان ممتازاً من الناحية الاستراتيجية إذ تقع على جبل المقطم، وتهيمن على القاهرة بالكامل نتيجة ارتفاعها عن سطح الأرض.

وجدير بالذكر أن صلاح الدين هو الذي أعطى للمهندسين تصميم القلعة الذي راعى فيه أن يكون بداخل أسوارها آبار للمياه حتى يضمن وجود مورد ماء ثابت للموجودين بداخلها في حالة ما إذا تعرضوا لحصار طويل، وهو بهذه الفكرة يكون قد أنهى عيوب القلاع الأخرى، كما بنى حول القلعة خندقًا عميقًا ليزيد من قدراتها الدفاعية..

وبالإضافة إلى بناء القلعة فإنه قام باستكمال تحصيناته حول القاهرة عن طريق تشييد سور يلتف حولها، وبذلك تزداد القدرات الدفاعية للقاهرة ككل، ثم اتجه بعد ذلك إلى الطريق المؤدي إلى الإسكندرية حيث أقام سورًا ضخمًا يزيد كذلك من القدرات الدفاعية عن القاهرة حتى قبل وصول الصليبيين إليها.

وبعد ذلك سافر صلاح الدين إلى دمياط حيث أمر بتجديد وصيانة الجنازير الحديدية التي يتم تركيبها بموازاة السواحل لمنع سفن الصليبيين من الوصول إلى الشاطئ، كما أمر كذلك بإجراء بعض التجديدات في تحصينات المدينة، وبعد ذلك اتجه إلى الإسكندرية وفعل بمينائها وسواحلها نفس ما قام به وأمر به في دمياط وسواء في دمياط أو الإسكندرية أعطى أوامره للمهندسين البحريين بإصلاح أي عطب في أي سفينة مهما كان ضئيلاً أو صغيرًا مع التوصية لهم بضرورة بناء أكبر عدد من السفن يستطيعون بناءه.

وقد أكدت الأحداث التي حدثت بعد ذلك بعد نظر وحسن توقع صلاح الدين للسيناريو المتوقع للأحداث، إذ أن بلدوين الرابع اتفق مع مانويل كومنين إمبراطور بيزنطة على ضرورة عقد اتفاق بينهما مرة أخرى من أجل غزو مصر.. وقد تزامن الحديث عن هذا الاتفاق مع بدء وصول حملة صليبية جديدة من أوروبا بقيادة فيليب الألزاسي كونت فلاندرز.

وقد فشلت تلك الحملة في الوصول إلى مصر لنشوب خلافات عميقة بين بلدوين ومانويل بالإضافة إلى رغبة فيليب الألزاسي بأن يكون هو المهاجم الوحيد لمصر، عمومًا وفي كل الأحوال، وبالرغم من فشل هذه الحملة في غزو مصر إلا أنها أكدت لصلاح الدين عدة أمور كان من أهمها أن قيامه بعمل كل تلك الإجراءات الدفاعية التي قام بها في مصر إنما هي أعمال مطلوبة وحيوية، كما أكدت له هذه الحملة أن الهدف الرئيسي للحملات الصليبية بعد ذلك ستكون مصر لأنه في حالة قدرتهم على احتلالها سيكون الوضع قد استتب لهم تمامًا في الشرق، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الحملة الفاشلة أكدت له أن الهجوم الصليبي المتوقع في المستقبل سيكون الغزو البحري من دمياط والإسكندرية أحد عناصره الهامة بالإضافة إلى الغزو البري، وفي النهاية أكدت له هذه الحملة الفاشلة أنه قد أصبح المسؤول الأول عن طرد الصليبيين من المنطقة.

هزيمة متبادلة

مع فشل فيليب الألزاسي في غزو مصر اتجه تفكيره إلى ضرورة قيامه بغزو حماة بغرض تحقيق مكاسب لحملته في الشرق يستطيع من خلالها مواجهة دافع الضرائب في أوروبا، وكذلك ملوك وأمراء أوربا.

عندما وصلت أخبار سير فيليب الألزاسي بجيشه نحو حماة إلى صلاح الدين قرر على الفور أن يخرج لمهاجمة بيت المقدس فاتجه أولاً إلى الداروم وغزة وعندما وقف بجيشه أمام قلاع وحصون غزة أدرك مدى صعوبة اقتحامها لذلك

تركها وتقدم نحو عسقلان ويدأ في دك حصونها فأتى إليها بلدوين الرابع على رأس خمسمائة فارس وبعض رجال الدين الذين يحملون الصليب.

وفي هذه المواجهة أخطأ بلدوين خطأ عسكريًا فادحًا إذ تسرع في دخول المدينة، فاستغل صلاح الدين هذا الموقف وحاصر المدينة وبداخلها بلدوين الرابع الذي خسر الكثير من رجاله، ولما تأكد صلاح الدين من هزيمة بلدوين ترك حامية صغيرة تقوم باستكمال عمليات تطهير المدينة من الصليبيين واتجه هو على رأس جيشه ليغير على باقي الممالك الصليبية، والمدن الواقعة تحت احتلالهم؛ لذلك هاجم الرملة واللد، وحقق فيهما انتصارات مدوية، ونتيجة ذلك استرخى صلاح الدين وجنوده وفي نفس الوقت كان بلدوين قد استطاع أن يهرب من الحصار المضروب عليه في عسقلان واتجه إلى بيت المقدس حيث استطاع أن يجمع حوله فلول الصليبيين الناجين من كل البلاد والممالك والحصون التي دمرها صلاح الدين وخرج بهم ليقابله.

وعند تل الصافية واجه بلدوين المتحفز صلاح الدين المسترخي واستطاع بلدوين أن يحاصر صلاح الدين وجيشه، وهكذا عاش صلاح الدين نفس الموقف المتأزوم التي تعرض له بلدوين في عسقلان.

بصعوبة شديدة استطاع صلاح الدين أن ينجو بنفسه، ويخرج بكامل جيشه، وعاد بجيشه إلى القاهرة.. لكن هذه المرة دخلها وهو يشعر أنه مكسور الجناح خاصة أنه شعر أنه كاد أن يخسر كل شيء في هذه المعركة.

ومن ناحية أخرى استمر بلدوين في مطاردة بقايا القوات الإسلامية، وتوقف في مطارداته لهم عند حدود مدينة عسقلان، ثم رجع بجيشه إلى بيت المقدس وهو يرفع أعلام النصر حيث فتحت مدينة بيت المقدس -القدس- أبوابها له، واستقبلته استقبال الفاتحين المنتصرين، وقد حدثت هذه الأحداث في ديسمبر من عام ١١٧٧ .

وكان لهذه المعارك ونتائجها التي آلت إليها أثر كبير على الطرفين إذ دعمت من الحالة المعنوية للصليبيين؛ لذلك بدؤوا في مهاجمة المسلمين في شمال الشام، وكانوا يلاحقونهم من مكان لآخر، كما بدؤوا في تدعيم مواقفهم الدفاعية في مناطق جنوب الشام، ومثال ذلك القلعة التي بدأ بلدوين الرابع في إقامتها عند بيت يعقوب، وهي القلعة التي أصبح اسمها فيما بعد حصن جسر بنات يعقوب، وكان موقعها هامًا من الناحية الاستراتيجية إذ كانت تقع على طريق طبرية، وصفد، ودمشق.

أما أثر هذه المعارك على صلاح الدين فإنها أوصلته إلى إدراك حقيقي بضرورة قيامه بطرد شمس الدين بن عبد الملك من بعلبك.. لذلك كانت أول أعماله بعد أخذ قسطًا من الراحة أن اتجه بجيوشه إلى هناك حيث حاصر المدينة وقد استمر حصاره لها طويلاً إلى أن سقطت ثم سلمها بعد ذلك إلى أخيه شمس الدين.

وفي أثناء حصار صلاح الدين لمدينة بعلبك استطاع بلدوين الرابع أن يتم بناء قلعة بيت يعقوب، ومن ثم أصبح وجودها يمثل خطرًا كبيرًا على قوافل المسلمين التجارية، وعلى جيوش صلاح الدين نفسه.

عندما تأكد صلاح الدين من خطورة هذه القلعة على مصالحه العسكرية والتجارية طلب من بلدوين الرابع أن يهدمها فطلب بلدوين الثمن الذي دفعه في بنائها، فعرض صلاح الدين عليه مبلغ ستين ألف دينار لكن بلدوين رفض هذا المبلغ فعرض صلاح الدين مبلغ مائة ألف دينار، لكن بلدوين رفض هذا العرض فسكت صلاح الدين ولم يعرض أية مبالغ أخرى، وبذلك بقيت القلعة ولم تهدم.

النسر يستعيد الثقة

بتأثير التداعيات النفسية للمعارك السابقة استغل بلدوين الرابع والأمير همفري حاكم حصن بانياس خروج بعض أهالي دمشق لرعي مواشيهم وأغنامهم في المواعي القريبة من بانياس فهاجمهم بلدوين الرابع وهمفري وعندما وصلت هذه الأخبار إلى صلاح الدين الموجود بدمشق قرر أن يخرج بقواته التي قادها ابن شقيقه عز الدين فرخ شاه.

وقد استطاع عز الدين عن طريق توجيهات عمه بإلحاق خسائر فادحة بالجيوش الصليبية، وفي هذه المعركة أصيب الملك بلدوين بإصابات خطيرة بينما كانت إصابة همفري مؤثرة إذ توفي من جراء الجروح التي أصابته بعد ثلاثة أيام فقط من انتهاء المعارك.

وبذكاء سياسي وحنكة القائد العسكري، استثمر صلاح الدين ما حدث للملك بلدوين، وللأمير همفري، واتجه إلى حصن «بيت الأحزان» وحاصره ثم اقتحمه وقام بأسر كل ما به من جنود ثم اتجه بجيشه إلى تل القاضي الواقعة غرب بانياس، وعسكر بجنوده هناك، ومن ثم أصبحت في حوزته وتحت سيطرته، وبعد ذلك أرسل بخطاب إلى أخيه الملك العادل نائبه على مصر يطلب فيه منه ضرورة إرسال جيوش وعتاد وغذاء.

وهكذا أصبح الموقف حرجًا جدًا أمام الصليبيين الذين وجدوا أن أفضل حل له هو مهاجمة صلاح الدين ونتيجة لهذا التفكير الصليبي خرج بلدوين على رأس جيش والتقى مع جيوش صلاح الدين في سهل مرج العيون، وفي هذه المعركة استطاع صلاح الدين أن يشتت القوات الصليبية، وكان على وشك أسر بلدوين الذي استطاع أن ينجو بنفسه بصعوبة، وكان الطريق في هذه اللحظة ممهدًا أمام صلاح الدين للانقضاض على بيت المقدس، وسائر المدن الصليبية الأخرى.

ورغم ذلك فإنه لم يقم بمهاجمة هذه المدن خشية أن يحدث له مثل ما حدث في المرة السابقة.. وقد اكتفى فقط بفتح حصن الأحزان بالقوة، وكانت الغنائم التي حصدها من هذا الحصن هي مائة ألف قطعة سلاح من مختلف الأنواع كما قام بأسر سبعمائة فارس بالإضافة إلى تحطيمه التام للحصن، ثم أشعل النار به وقد رأى الصليبيون الموجودون في طبرية ألسنة الدخان واللهب وهي تشق عنان السماء، ومعروف أن طبرية بعيدة جدًا عن حصن الأحزان.

بعد ذلك اتجه صلاح الدين بقواته إلى صور، وصيدا، وبيروت، وأمر الأسطول المصري بالخروج من مصر الذي استطاع أن يهاجم عكا، وأن يلحق بسواحلها وقلاعها البحرية خسائر كبيرة.

ونظرًا لقسوة هجمات صلاح الدين على كل المدن والقلاع الصليبية، وفي نفس الوقت قدرته على إلحاق الهزائم بها طلب بلدوين الرابع عقد اتفاق هدنة مع صلاح الدين، وكان ذلك في مايو من عام ١١٨٠ .

وقد وافق صلاح الدين على عقد هذه الهدنة لأنها كانت مقصورة فقط على بيت المقدس، أما باقي الإمارات والمدن التي تحت الاحتلال الصليبي فإنها كانت خارجة عن اتفاق الهدنة، وبذلك يكون الاتفاق على الهدنة لا يمنعه من مهاجمة باقي المدن الصليبية وفعلاً نجد أنه في يونيو ١١٨٠ أي بعد شهر واحد من توقيعه على اتفاق الهدنة على بيت المقدس هاجم الأسطول المصري أنطرطوس التابعة لطرابس، وألحق بها هزائم فادحة، مما اضطر الأمير ريموند الثالث أمير طرابلس إلى طلب عقد اتفاق هدنة مع صلاح الدين.

في نفس اللحظة التي طلب فيها أمير طرابلس عقد هدنة مع صلاح الدين شعر النسر أنه قد بدأ في الطيران العالي بحرية شديدة، وأن أجنحته قد قاربت على احتواء كل أرجاء المنطقة.

لذلك قرر أن يأخذ قسطًا من الراحة له ولجنوده خاصة أنه في هذا التوقيت تطايرت أخبار عن المحاولات التي يقوم بها الصليبيون من أجل تجديد تحالفهم مع إمبراطور بيزنطا.

كما قرر النسر المحلق عاليًا أن يستغل الأثر النفسي الهائل الذي أفرزته انتصاراته الضخمة والمتوالية من أجل لم شمل القوى الإسلامية في أقصى شمال الشام، وفي العراق التي كان حتى هذا الوقت غير خاضع لنفوذه.

ونتيجة لحروبه المتكررة مع الصليبيين فقد ازدادت خبرته السياسية لذلك وجد أن استمراره في قتال الصليبيين دون أن يكون قابضًا يده على حلب سيجلب له مشاكل جمة هو في غنى عنها.

وبالإضافة إلى ما سبق فإنه كان يريد العودة إلى عشه المحبوب في مصر.

من أجل حسم بعض الأمور الصغيرة حتى يتسنى له بعد ذلك أن يوجه كل جهده وتفكيره في التدبير لتحرير بيت المقدس من يدي الصليبيين، ومن ثم طردهم منها، وهذا لن يتحقق إلا إذا كان قادرًا على الطيران في سماء المنطقة بحرية، وأجنحته غير مكبلة بأية أغلال أو تحمل فوق عاتقها ما لا يجب عليها أن تحمله.

سباق مع الزمن

وفي يناير من عام ١١٨١ تم استقبال صلاح الدين على أبواب القاهرة بكل مظاهر الحب والإجلال من أهلها، ومن قادة الجيوش الموجودين بها للدفاع عن مصر في حال تعرضها لأي هجوم من البر أو البحر.

وقد كان على رأس مستقبليه أخوه العادل نائبه على مصر، وكان صلاح الدين قد علم بوفاة أخيه شمس الدين أثناء سفره إلى القاهرة، ومع ذلك نسي أحزانه الشخصية، وبدأ فور وصوله إلى القاهرة في العمل الجاد السريع حتى يستغل

مـعـاهـدات الهـدنة مع أمـيـر طرابلس، ومع ملك بيت المقـدس أحـسن وأفـضل استغلال لإيمانه العميق بأن المصادمات الكبرى مع الصليبيين ستحدث بعد انتهاء مهلة هذه الهدنة.

كما كان يدرك أن الوقت المتاح له للبقاء في مصر يعتبر وقتًا قليلاً، ومن ثم فإن عليه إنجاز الكثير من الأعمال المطلوب عليه إتمامها ليكون في كامل قدراته الدفاعية على المستوى الداخلي المتعلق بتأمين نظام حكمه، أما المشاكل التي يمكن أن تظهر على السطح في المرحلة المقبلة والتي كان يعتبرها حاسمة في المواجهة الكبرى مع الصليبيين وبالتالي فإن ظهور هذه المشكلة قد يعرقل خططه لتحرير بيت المقدس.

وكان أبرز هذه المشاكل مشكلة القضاء على الخونة الذين يمدون الصليبيين بالأنباء؛ لذلك أصدر قرارًا بنزع ملكيات المحال التجارية أو الأراضي الزراعية التي يمتلكونها كما قام بوضع هؤلاء في السجن وأعدم قادتهم.

كما أرسل معاونيه إلى كل المناطق التي كانت عبارة عن بؤر للفاطميين في مصر وقد نجح في مسعاه نحو التخلص الكامل منهم.

أما بخصوص الشؤون والأمور الخارجية فإنه قام بعمل دبلوماسي رائع، حيث عقد اتفاقية مع إمبراطور بيزنطا الكسيوس الثاني ونصت بنود هذا الاتفاق على عدم تقديم البيزنطيين أي مساعدة للصليبيين أثناء اشتباك صلاح الدين معهم، وفي المقابل لا يقوم صلاح الدين بأي عمل من الأعمال العدائية على البيزنطيين، وقد تجلت الحنكة السياسية لصلاح الدين عندما وضح المقصود بكلمة المساعدات حيث وضح أنها المساعدات العسكرية البرية، أو البحرية بالإضافة إلى المساعدات الغذائية والتموينية، والبضائع التي يمكن أن تستخدم بشكل يخدم الأعمال العسكرية التي يقوم بها الصليبيون، وقد تم توقيع هذا الاتفاق في أواخر عام ١١٨١ .

وبالإضافة إلى هذا الاتفاق فإنه أرسل رسالة للخليفة العباسي في بغداد يطلب منه المعونة والدعم الروحي والديني بخصوص سعيه لضم حلب لتكون تحت سيطرته حتى تصبح الجبهة الإسلامية موحدة بالكامل تحت رايته وقيادته.

وأعطى أوامره لشقيقه العادل بأن يعمل على استيراد الزيوت والأخشاب، وأي سلع أخرى تحتاجها مصر، والعمل على تخزينها في مخازن آمنة على أن يكون استيراد هذه السلع من البلاد الأفريقية وأيضًا من الهند.

وبذلك لم يبق أمامه سوى التأكد من تمام الاستحكامات الدفاعية على السواحل المصرية من دمياط إلى الإسكندرية خاصة بعد أن حاول رينو شاتيون الاعتداء على ميناء دمياط، فأمر بتجديد مواني دمياط والإسكندرية، وشدد من أوامره بضرورة وجود السلاسل الحديدية التي تعرقل دخول السفن المعادية إلى الموانى المصرية، وفي الإسكندرية أمر صلاح الدين حاكمها برمي عواميد حديدية وحجرية في البحر لتقوم بمقام السد الذي يمنع تقدم أو وصول السفن الصليبية إلى الشواطئ المصرية.

وبعد كل ذلك لم يبق أمامه سوى التأكد من رفع الكفاءة القتالية والروح المعنوية للقوات البرية؛ لذلك أعطى أوامره لقادة الجيوش بضرورة تكثيف تدريبات الجيش، والعمل على الاهتمام بتغذية وملابس أفراد الجيش، وخصص لهذا الغرض مبلغ أربعة ملايين دينار، وهو مبلغ ضم جدًا في هذا الوقت، وقد كان جيش صلاح الدين يتكون من تسعة آلاف فارس راكب، وعشرات الآلاف من الجنود المشاة، أما عدد ضاربي المنجنيق فقد كان عددهم حوالي ستة آلاف مقاتل بالإضافة إلى الآلاف من المساعدين لهم.

. أحوال مضطربة

بينما كان صلاح الدين يقوم بترتيب بيته من الداخل على كل المستويات، وكافة الأصعدة فإن الأحوال الصليبية كانت تسير في خط موازٍ لكن من سيئ إلى أسوأ.

ففي بيت المقدس تعرض الملك بلدوين الرابع إلى مرض انتهى به إلى الهلاك، وفي أثناء فترة مرضه التي طالت لم يترك زمام الحكم لغيره، وإنما تمسك بصولجان العرش، وفي الوقت نفسه لم يكن قادرًا على إلزام الأمراء المحيطين به بالالتزام بأوامره وقراراته، خاصة الأمير رينودي شاتيون الذي كانت تصرفاته تتسم بالتهور، والحماقة، وقصر النظر السياسي بالإضافة إلى سوء طباعه على المستوى الشخصي.

وكانت أكبر المشاكل التي سببها رينو دي شاتيون للصليبيين هو محاولته الزحف على رأس جيش نحو مكة بغرض الاستيلاء عليها، وقد أفزعت هذه المحاولة أفراد البلاط الملكي في بيت المقدس لعلمهم أن هذا العمل سيهدم بكل تأكيد أية اتفاقيات بينهم، وبين صلاح الدين لما للكعبة من قداسة عند المسلمين حيث إنها قبلة صلاتهم، وبالتالي كانوا يدركون أن المسلمين لن يتهاونوا في أمر الدفاع عن الكعبة مهما كلفهم هذا الأمر من خسائر في الأرواح أو في الأموال.

وقد حدث فعلاً رد الفعل الذي توقعه رجال البلاط الملكي في بيت المقدس حيث خرج فرخ شاه ابن شقيق صلاح الدين واتجه بقواته نحو خور الأردن، وانتصر عليها، ثم سار بقواته نحو مملكة «رينو» مما أجبره على عن حلمه المجنون بغزو مكة؛ لأنه رجع بجيشه سريعًا للدفاع عن إمارته، وهكذا أنهى رينو بنفسه المشكلة التي كان قد بدأها، وقد أرسل الملك بلدوين رسالة تعنيف إلى رينو إلا أن رينو تعامل معها بعجرفة.

وأرشل صـلاح الدين رسـالة توبيخ إلى بلدوين، يوضح له فيـهـا أن مـثل هذه الأعمال تعتبر من الأفعال التي تؤدي إلى نقض المعاهدة، فما كان من بلدوين إلا أن رد على صـلاح الدين بأن وضح له مـدى عجـزه عن كبح جمـاح الأمـير رينو، وبالتالي فإنه غير قادر على إلزامه باحترام شروط الهدنة الموقعة بين الطرفيـن.

وفي شمال الشام فإن إمارة أنطاكيا بدأت في إعلان تمردها على بيت المقدس لأن أميرها «بوهيموند الثالث» كان منصرفًا في نزواته النسائية حيث كان رفيقًا لغانية اسمها «سيبيل» وكان لا يهمها إلا المال فاستطاع صلاح الدين أن يجندها لصالحه عن طريق إغداق الهدايا، والأموال عليها، وبالتالي فقد كانت عينًا للمسلمين في مخدع بوهيموند، وداخل بلاطه الأميري.

وكان بلدوين –قبل هذه الأحداث بفترة قليلة – قد فقد الإمبراطور البيزنطي «مانويل كومنين» والذي كان يرغب في التحالف الدائم مع الصليبيين عكس خلفه الإمبراطور «إلكسيوس كومنين» الذي أبرم معاهدة مع المسلمين.

وبذلك فقد بلدوين حليفًا حقيقيًا كثيرًا ما أنقذه في أوقات الشدة والأزمة والمحنة.. كما قذفت أمواج البحر ببضعة سفن صليبية إلى شاطئ دمياط، وكان فوق تلك السفن حوالي ألفين وخمسمائة محارب بعد أن فشل ربان السفن من السيطرة عليها إذ أن طريقهم الأصلي هو الوصول إلى بيت المقدس، وليس دمياط.

وقد قام جنود السواحل المصريين بأسر هؤلاء الصليبيين، وقد استغل صلاح الدين هذا الموقف لصالحه حيث طالب رينو بالإفراج عن كل الأسرى المسلمين مقابل أن يعطيه جنوده.. لكن رد رينو كان سلبيًا فاحتفظ صلاح الدين بهؤلاء الجنود، ومن ثم أصبحوا أسرى له.

تطورات في الشام

بينما صلاح الدين في القاهرة يتابع تأمين مصر دفاعيًا، ويجهز جيوشها من أجل المعركة المرتقبة كانت الأحداث السيئة المتلاحقة تضرب الصليبيين.. وقد حدث في نفس التوقيت في الشام أن توفي سيف الدين غازي حاكم الموصل وأحد أشد المعارضين لصلاح الدين ١١٨٠، وبعده بسنة تقريبًا لحق به الصالح إسماعيل، ونظرًا لخوف أمراء الموصل من أطماع صلاح الدين عملوا على حرمان أبناء سيف الدين من وراثة والدهم في الحكم، وقاموا باستدعاء عز الدين شقيق سيف الدين ليتولى حكم الموصل.

وكان الصالح إسماعيل، وهو على فراش مرض الموت قد أوصى أن يخلفه على عرش حلب ابن عمه عز الدين، وهكذا أصبح عز الدين ملكًا على حلب، والموصل، وقد دعاه أهل حماة التابعة لدمشق ليكون ملكًا عليها، لكنه لم يستجب لدعوتهم خوفًا من صلاح الدين، بالرغم من أنه لو كان قد زحف إلى حماة، ودمشق لانتزعهما من صلاح الدين الموجود في مصر.

وهكذا عادت من جديد السياسات التي يحارب صلاح الدين وجودها لتأثيرها السيئ والسلبي على الوحدة الإسلامية في كفاحها لطرد الصليبيين من الأراضي العربية التي احتلوها.. وكانت مراسلات قد تمت بين أمراء حلب والموصل مع الصليبيين من أجل إزاحة صلاح الدين عن طريقهم.

الخروج من مصر:

في مايو من سنة ١١٨٢ سافر صلاح الدين من مصر، وترجع أهمية هذه الرحلة إلى أنها آخر مرة شاهد فيها صلاح الدين نيل القاهرة، وشوارعها وطرقاتها، وأيضًا قلعتها إذ خرج إلى الشام، وذهنه مشغول بأمور كثيرة أهمها: رغبته في إتمام وحدة الصف العربي ليتفرغ بعدها لقتال الصليبيين.

وقد اتجه صلاح الدين بقواته إلى «أيلة» على خليج العقبة، وهناك وصلته أخبار قيام الصليبيين بجمع جيوشهم في حصن الكرك للعمل على منعه من دخول الشام.

وكان في نفس التوقيت قد عقد الملك بلدوين الرابع مجلس حرب -وفي هذه النقطة تحديدًا يذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن بلدوين كان غرضه الأساسي من هذه الحشود هو معاقبة رينو» على الرغم من أن خروجها سيكون تحت مظلة قطع الطريق على صلاح الدين من أجل عدم وصوله إلى الشام - لكن هذه الخطة فشلت لسببين هو أن «رينو» قد توصل للغرض الحقيقي لخروج جيش بلدوين الرابع، ومن ناحية أخرى اتجه صلاح الدين من أيلة إلى إقليم الشوبك حيث قام بغزوه.

وفي نفس التوقيت استغل نائب دمشق انتقال جيوش الصليبيين إلى الأردن واتجه هو بجيوشه إلى طبريا، وعكا، حيث استطاع أن يستولي على «الشقيف أرنون» واستطاع أن يأسر ألف مقاتل صليبي، ويأخذ عشرين ألفًا من الأغنام والأبقار، وانتقل بعد ذلك إلى شرق بحيرة طبرية واستولى علي حصن «حبيس».

في تلك اللحظة أدرك بلدوين الرابع ورفاقه مدى الخطأ الاستراتيجي الفادح الذي ارتكبوه بتركهم إقليم الجليل دون دفاعات كافية.. لذلك قرر بلدوين العودة سريعًا إلى بيت المقدس مع ضرورة اقتفاء أثر صلاح الدين، وقد أيده كل مساعدوه فيما طلب.

إلا أن صلاح الدين كان يومًا بعد يوم يثبت مدى حنكته وخبرته، وقدرته السياسية والعسكرية؛ لذلك قرر أن يتخذ من أطراف الصحراء طريقًا له ليصل إلى الشام على اعتبار أن الطريق الذي اختاره للسير يبعد عنه أي خطر صليبي، وقد نجح في الوصول إلى دمشق ودخولها في يوم ٢٢ يونيو ١١٨٢ .

لم يسترح صلاح الدين طويلاً في دمشق إذ بحلول يوم الحادي عشر من يوليو ١١٨٢ خرج منها واتجه بجيشه إلى الطريق المؤدي لبلدة الناصرة، حيث تقابل مع جيوش الصليبيين عند بلدة كفر بلا وقد تصاعدت أحداث المعركة بين الفريقين إلى أن استطاع صلاح الدين أن يحسمها لصالحه بصعوبة شديدة.

وقد أثرت هذه المعركة الصغيرة في فكر صلاح الدين كثيرًا، إذ أوضحت له عدم جدوى الدخول في معارك محلية صغيرة ضد الصليبيين؛ لأنه مهما انتصر المسلمون في هذه المعارك الفرعية أو الصغيرة فإنها في حقيقة الأمر لن تغير من الواقع العملي على الأرض، وهو وجود الصليبيين، وبذلك كانت هذه المعركة هي السبب الرئيسي إلى إدراكه أن خروج الصليبيين لن يكون إلا عن طريق الدخول معهم في معارك كبرى.

الهدف .. بيروت

نتيجة تطور الفكر الاستراتيجي لصلاح الدين تأكد من حتمية القيام بعمل يكون من شأنه فصل الإمارات الصليبية مثل طرابلس وأنطاكيا عن مملكة بيت المقدس؛ لأن نجاحه في إيجاد هذا التباعد بين الإمارات الصليبية سيكون هو مدخله الحقيقي للمعركة الفاصلة التي ينتظرها، ويتشوق إليها، ويعد نفسه على مدار فترات طويلة سابقة ليكون قادرًا على التعامل معها عند حدوثها.

لذلك اتجه صلاح الدين بتفكيره بأنه من المهم له أن يقوم بطرد الصليبيين من بيروت لميزاتها العديدة على اعتبار أنها نقطة استراتيجية حاكمة على البحر كما أنه إذا ما نجح في الاستيلاء عليها فإنه سيكون قد عزل طرابلس وأنطاكيا عن بيت المقدس.

وقد قرر صلاح الدين أن ينفذ ما يفكر فيه على الرغم من علمه وإدراكه لمدى الشراسة القتالية والكفاءة العسكرية التي يتمتع بها حاكما طرابلس وأنطاكيا، إلا

أنه قرر تنفيذ فكره بشكل عملي؛ لأنه في حالة نجاحه يكون قد حقق هدفًا مزدوجًا الأول: هو إضعاف الجبهة الصليبية في الشام نتيجة لعزل مناطقها القوية عن بعضها البعض.

أما الأمر الثاني: هو بسط سلطانه على منفذ بحري يساعد في وصول الإمدادات له.

ولضمان نجاح خطته طلب من أخيه العادل نائبه على مصر طوال فترة سفره أن يقوم بإرسال أفضل قطع الأسطول البحري المصري لغزو وضرب بيروت من البحر، على أن يقوم هو بغزوها من البر في نفس التوقيت.

وقد تعمد صلاح الدين أن يخفي اتجاه حركة قواته الرئيسية لذلك أعلن أنه سيتجه بجيشه إلى حلب، والموصل، وبذلك يتجه تفكير الصليبيين تجاه المدن التي سيضربها، وبذلك يتجهون بقواتهم إليها، بينا يكون هو بعيدًا عن أي خطر من الجيوش الصليبية لوجوده في بيروت.

وفي نفس الوقت طلب من الجيش التابع له المرابض في مصر بمهاجمة عسقلان بكل قوة وشدة.. ووصلته أخبار تحرك ثلاثين سفينة عسكرية مصرية باتجاه بيروت.

في الأول من أغسطس ١١٨٣ هاجم الأسطول المصري سواحل بيروت في نفس الوقت الذي كان صلاح الدين قد وصلها برًا، وبدأ في مهاجمتها بضراوة لكن المدينة قاومت بشدة وبدأت القطع البحرية الصليبية الموجودة في عكا، وصيدا تتحرك باتجاه بيروت بغرض فك حصارها البحري، وفي نفس الوقت كانت الحامية الصليبية الموجودة بها تستميت في الدفاع عنها، وإن كانت تتعرض لخسائر فادحة من أثر الضربات المباغتة والمركزة التي يقوم بها صلاح الدين.

بعد فترة من الحصار الطويل وبيروت لم تسقط رغم ما تتعرض له من

ضربات موجعة قرر صلاح الدين عودة سفنه البحرية إلى مصر مرة أخرى كما قرر أن يتجه بقواته البرية إلى دمشق ومنها يتجه إلى حلب، حيث استطاع أن يخضعها لقبضته ثم عاد مرة أخرى إلى دمشق، ومنها اتجه إلى عين جالوت بفلسطين، وأثناء عسكرة قواته لمحت إحدى دورياته العسكرية قافلة إمدادات صليبية فأغاروا عليها وسلبوا محتوياتها.

وصلت أخبار خطف المسلمين بقيادة صلاح الدين لقافلة الإمدادات الصليبية إلى الملك بلدوين الرابع الذي كان يكافح مرض الموت، ورغم ذلك عقد اجتماعًا مع أركان حربه، وكان أول شيء قام به أن قام بتعيين شقيق زوجته الأمير «جاي لوزخبان» وصيًا على العرش، وبعد ذلك أقر المجتمعون أن يخرج الأمير جاي على رأس جيش صليبي لتأديب المسلمين.

خرج جاي على رأس الجيش الصليبي وعسكر عند الفولة، وهي قرية صغيرة بالقرب من عين جالوت.. وعندما رأى جاي كثرة أعداد جنود صلاح الدين، ورأى تسليحهم القوي لم يبادر بالهجوم..

وقف الجيشان أمام بعضهما عدة أيام كان صلاح الدين يرسل أثناءها بعض دورياته الراكبة للإغارة المحدودة على الجيش الصليبي، وقد كان الغرض الأساسي لصلاح الدين من هذه المناوشات هو تشتيت جهود الصليبيين وأيضًا محاولة جرهم للمعركة.. لكن جاي لم يستجب لتفكير صلاح الدين، وتحمل الخسائر التي يتعرض لها جيشه في صمت.

لجأ صلاح الدين إلى آخر خططه من أجل توريط الجيش الصليبي في الدخول لحرب يخسرونها إذ اتجه بقواته إلى جبل الطور على أمل أن يتحرك الجيش الصليبي خلفه، فيقوم هو بالالتفاف عليهم ومفاجأتهم بهجوم مضاد سريع، لكن جاي فوت على صلاح الدين هذه الفرصة أيضًا ؛ لذلك اضطر صلاح الدين إلى العودة مرة أخرى إلى دمشق، كما رجع الصليبيون إلى ثكناتهم

العسكرية بالقرب من بيت المقدس.

وجدير بالذكر أن تلك الخطة العسكرية التي حاول صلاح الدين بها استدراج جيوش الصليبيين لمهاجمته حتى يستطيع أن يلتف عليهم، وأن يفترسهم هي نفس الخطة التي استخدمها بعد ذلك بأربع سنوات فقط في معركته الفاصلة مع الصليبيين في حطين.

الهدف .. مكة:

كما سبق أن أوضحنا أن رينو استغل عدم قدرة الملك بلدوين الرابع على الإمساك بزمام الأمور، وأخذ يعربد في البلاط الملكي لبيت المقدس للدرجة التي هددت انضباط النظام في بلاط بيت المقدس.

ولما زاد تفكيره في الشطط قرر الاتجاه بجيشه نحو مكة ليضرب المسلمين في مقتل، وبالتالي يكون قد كسر شوكتهم نهائيًا، كما دار في ذهنه أيضًا أن يقوم باحتلال اليمن بعد مكة بغرض السيطرة على طريق التجارة مع الهند والصين وسرنديب.

وقد بدأت خطة رينو بالاستيلاء على مدينة وحصن أيلة الموجود في خليج العقبة والذي كان الملك بلدوين الأول قد وضع يده عليها عام ١١١٦، واستطاع صلاح الدين أن يستردها في عام ١١٧٠ .

استطاع رينو أن يسترجعها مرة أخرى للمعسكر الصليبي بعد أن شيد العديد من السفن وحملها مفككة على ظهور الجمال حتى قام رجاله بتركيب أجزائها في مياه خليج العقبة، وبعد ذلك بدأ في مهاجمة جزيرة فرعون، واستطاع أن يستولي عليها، ثم بدأت سفنه تتحرك بحرية في البحر الأحمر مما سبب الذعر الشديد للمصريين الذين لم يتعودوا رؤية السفن الصليبية في هذه الجهة، وقام جنود رينو بعمليات قرصنة على السفن المصرية، والعربية التي تبحر في البحر الأحمر كما

احتل ميناء «عيذاب» المصري، وهو الميناء المقابل لميناء جدة على الناحية الأخرى من البحر الأحمر.

اتجه بعد ذلك رينو إلى ساحل الحوراء قرب ينبع بأرض الجزيرة العربية، ونجح رينو عن طريق سلاح المال في استمالة بعض البدو حتى يدلوه على المسالك الداخلية للبلاد، وهكذا أصبح رينو بقواته على مسافة قريبة جدًا من مكة المكرمة.

وعلى الناحية الأخرى عندما علم صلاح الدين بما حدث أصدر قراره لأخيه العادل بضرورة خروج أقوى قطع الأسطول البحري المصري لإبادة الأسطول الصليبي في البحر الأحمر مهما تكلف ذلك من جهد وخسائر.

خرج الأسطول المصري تحت قيادة «حسام الدين لؤلؤ» قائد البحرية المصرية، وبدأ في حصار أيلة، وقام بحرق السفن الصليبية التي وجدها وقام بأسر كل من فيها، ثم أسرع الخطى في البحر الأحمر ليتعقب السفن الصليبية التي تجوبه.

لحق الأسطول المصري بالسفن الصليبية عند شاطئ حوراء واستطاع أن يحرق كل السفن الصليبية بعد أن أخذ كل من عليها كأسرى، وفي نفس الوقت استطاع فك أسر الجنود المسلمين.

ونتيجة المفاجأة والمباغتة التي حدثت للصليبيين أخذوا يهربون إلى الصحراء من أجل الاحتماء بها، فطاردهم حسام الدين ورجاله حتى قبض عليهم جميعًا، وعاد بهم إلى القاهرة، حيث تم عرضهم على الناس في الشوارع ثم قتلوا جميعًا ليكونوا عبرة، ومثال لأي شخص تسول له نفسه المساس أو العبث ببيت الله الحرام.

هكذا فشلت محاولة رينو لغزو مكة، لكن تداعياتها على الطرفين كانت كثيرة، فقد نبهت هذه المعركة الطائشة من رينو إلى مدى أهمية الكرك، ومدى الخطر

الجسيم الذي يمكن أن يأتيه منها.

كما أن صلاح الدين أصبح ناقمًا على رينو، ولم يعد يتعامل معه كقائد محتل، وإنما بدأ في التعامل معه كشخص أحمق أرعن يجب الخلاص منه، لأنه لا يستطيع استيعاب الحدود التي يجب أن يتوقف عندها خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمقدسات الدينية.

أما على الجانب السياسي فإن خسائر الصليبيين كانت فادحة، كما أن محاولة رينو كشفت الوجه القبيح الذي حاول كل الحكام الصليبيين أن يخفوه منذ أن وطأت أقدامهم المنطقة.

وعلى المستوى النفسي كانت أهم النتائج زيادة الكراهية ضدهم لدرجة أن حلفاءهم من حكام حلب، والموصل قد عبروا عن هذه الكراهية لبلدوين، وعلى الصعيد العسكري أعلن صلاح الدين أنه قد أصبح في حل من أي من المعاهدات التي وقعها مع الصليبيين.

وكان رد فعل صلاح الدين على كل ما حدث هو محاولته حصار الكرك، وإسقاطها إلا أنه فشل في ذلك لنجدة بلدوين الرابع، وهو في مرض موته لأهل الكرك..

ونتيجة هذا الفشل وجه جام غضبه تجاه الإمارات، والمدن التي تقع تحت حماية بلدوين الرابع مثل نابلس، وسبسطية، وجنين، حيث أسر الكثير من الجنود الصليبيين من نابلس، وأحرق قلعة جنين بمن فيها وفتح سبسطية، لكنه تركها، وعاد دون أن يحتلها، أو يقوم بأي عمل تخريبي فيها، وذلك تكريمًا للمدينة الموجود بها قبر النبي زكريا عليه السلام.

الخطوة قبل الأخيرة:

مع مرور الوقت، وتوالي المعارك التي كان يدخلها صلاح الدين أن المواجهة الحاسمة التي يعد لها منذ فترة قد اقترب وقتها، رغم أنه بالطبع لم يكن يعرف موعدها، إلا أن ما زاد من شعوره هذا أن إرهاصات تلك المعركة المرتقبة كان ظلها واضحًا على كل أرجاء الشام سواء في الجانب العربي، أو في الجانب الصليبي.

لذا فإن كل جانب من الجانبين كان يحاول تنظيم صفوفه بالصورة التي يعتقد أنها مثالية، ومن ثم سيتمكن من خلال تلك الاستعدادت من تحقيق هدفه النهائي الذي يتمنى الوصول إليه من هذه المواجهة.

كما كان كل طرف يعمل بكل جهده على عدم استثارة الجانب الآخر خوفًا من أن يتم تصعيد الموقف بشكل مفاجئ قد لا يكون أحد طرفيه مستعدًا له.

وللدلالة على هذا الفكر الذي كان مسيطرًا على كل طرف سنجد أن صلاح الدين مثلاً لم يتوقف أمام الكرك عندما فشل في فتحها، كما أن مجلس الحرب الصليبي لم يأخذ قرارًا بأن تتبعه قواتهم أو أن يقوموا بمهاجمة الحصون والبلاد التي تحت سلطة صلاح الدين على الرغم من أن الصليبيين بقيادة بلدوين هم الذين منعوه من دخول الكرك، وفي نفس الوقت فإن صلاح الدين قد دمر لهم الكثير من المدن والحصون أثناء عودته من الكرك، مثل نابلس، وجنين.

وهكذا نجد أن كل جانب قد تفرغ لشؤونه الداخلية في محاولة لإيجاد حل يحقق أهدافه عندما تحين الفرصة الأخيرة، والتي ستكون نتيجتها وجود قدم واحدة فقط على الأرض.

لذلك نجد صلاح الدين في هذه المرحلة بدأ في عملية وضع أبنائه في المناصب القيادية للدولة بدلاً من إخوته، وأبناء عمومته، حيث سنجد أنه في هذه

المرحلة قد استدعى أخاه العادل نائبه على مصر، ومن المعروف أن العادل كان أقوى شخصية في البلاد كلها - مصر والشام- بعد أخيه صلاح الدين الذي نقله من القاهرة إلى حلب، وأعطى مصر للمظفر تقي الدين بالإضافة إلى ابنه الأفضل، أما حلب فأعطى كرسي الحكم فيها لابنه الثاني غياث الدين.

ورغم ذلك فإن المشاكل بدأت تدب بعد وقت قصير بين المظفر والأفضل في مصر، لذلك اضطر صلاح الدين إلى استدعاء المظفر إلى حلب، وأرسل بدلاً منه ابنه العزيز عثمان، وبذلك تربع ابنا صلاح الدين الأفضل والعزيز على عرش مصر.

أما في الجانب الصليبي فقد وصل الملك بلدوين الرابع إلى أدنى مراحل ضعفه، وبدأ أمراء بلاطه الملكي في التأثير عليه بدرجة كبيرة، حيث أجبروه على إبعاد جاي لوزجنان من منصب الوصي على العرش، واشترطوا على بلدوين الرابع أن يقوم بتعيين ابن أخته الطفل الصغير شريكًا له على عرش بيت المقدس، وأطلقوا على الصغير لقب بلدوين الخامس، وبذا يكون هذا الصغير هو الوريث الشرعي لملكة بيت المقدس بعد وفاة بلدوين الرابع، وكان الغرض من هذا التعيين هو قطع الطريق أمام جاي في إمكانية وراثته لعرش بيت المقدس.

وتحت تأثير المرض حاول بلدوين الرابع أن يطلق أخته من جاي مما جعله يذهب إلى إمارته - يافا وعسقلان- غاضبًا وتحصن بها وأعلن عصيانه على بلدوين الرابع الذي علم بما قام به جاي فأعطى أوامره لجيشه بالزحف على يافا وعسقلان لتأديب جاي عن طريق عزله، وفعلاً نجح جيش بلدوين الرابع في تحقيق المهمة التي كلف بها.

بعد ذلك عقد مجلس الحرب اجتماعًا اختاروا فيه الأمير ريموند الثالث أمير طرابلس وصيًا على الملك بلدوين الرابع الذي كان في هذا التوقيت قد دخل في المرحلة الأخيرة من مرض موته.

لم يمض وقت طويل على هذا الانقـلاب السلمي إلا ومـات بلدوين الرابع، واعتلى بلدوين الخامس بيت المقدس تحت وصاية الأمير ريموند الثالث.

مع إحكام ريموند قبضته في حكم الصليبيين كان أول شيء فكر فيه أن المملكة الصليبية في أشد الاحتياج إلى تجديد اتفاق الهدنة مع صلاح الدين،وكان ريموند يهدف من وراء تلك الهدنة كسب الوقت من أجل حل المشاكل الصليبية التي ظهرت إلى الوجود نتيجة ضعف بلدوين الرابع، ونجح ريموند الثالث في مسعاه حيث تم توقيع الهدنة لمدة أربع سنوات ١١٨٥ - ١١٨٩ .

والآن نعود مرة أخرى إلى صلاح الدين الذي قرر هو الآخر أن يستفيد من هذه الهدنة في العمل على حشد كل جهوده السياسية، والعسكرية، والأدبية نحو إخضاع الموصل لقبضته، لذا خرج بجيشه لكن حرارة الجو حالت دون إتمام ما يفكر فيه ويتمناه بالإضافة إلى أن حاكم مدينة خلاط توفي في تلك الفترة، فترك صلاح الدين الموصل واتجه إلى خلاط، ليضمن ولاءه له، لكنه فشل في تحقيق ذلك، وأثناء عودته إلى دمشق استولى على ميافارقين، وبعد نجاحه في ذلك أصابه مرض شديد لدرجة أن المحيطين به خافوا أن يكون هذا المرض هو مرض موته، ونهاية حياته، ومن شدة المرض لم يستطع أن يكمل طريق عودته إلى القاهرة التي كان يريد زيارتها للاطمئنان على دفاعاتها فقرر الذهاب إلى دمشق لكن المرض زاد عليه فاضطر مرافقوه إلى التوقف في مدينة حران من أجل إعطائه الوقت الكافي واللازم لتلقي العلاج بشكل منتظم، والحصول على الراحة المطلوبة في مثل هذه المناسبات.

أثناء هذا المرض المفاجئ الذي ألم بالنسر إذا بالقدر يهديه أجمل هداياه، وأهم عطاياه، إذ قرر حاكم الموصل المناوئ لسلطة صلاح الدين أن يستغل مرضه، ويذهب إليه ليعرض عليه الصلح، وقبل صلاح الدين هذا الصلح مع عز الدين مسعود الذي وافق على أن يكون نائبًا لصلاح الدين، كما وافق أيضًا على أن

يدعو ائمة المساجد باسم صلاح الدين في يوم الجمعة، وكذلك في الأعياد، والمناسبات الرسمية للدولة.. كما طلب صلاح الدين من عز الدين أن تكون العملة المتداولة في أسواق الموصل تحمل اسمه.

وهكذا حقق النسر الجسور، وهو على فراش المرض ما سعى إلى تحقيقه بالقوة.

وعلى الجانب الصليبي فإن الملك بلدوين الخامس - الطفل الصغير - مات فجأة بعد أشهر قليلة من اعتلائه عرش بيت المقدس، وقد كانت وفاة هذا الطفل نذير شؤم عليهم إذ بموته التهب الصراع بين الأمراء لرغبة كل منهم في اعتلاء العرش الخالي.. وبذلك انفتحت أبواب الجحيم في وجوههم إذ انقسم أعضاء البلاط الملكي إلى قسمين الأول منهما أيد جلوس جاي الوصي السابق على العرش، أما القسم الآخر فقد نادى بضرورة اعتلاء ريموند الثالث الوصي الحالي على العرش ، عرش المملكة.

وانتصر أصحاب الرأي الأول المطالب بأن يكون جاي هو ملك بيت المقدس، ويرجع انتصار أصحاب هذا الرأي لأن بطريرك القدس قد سانده مما أضفى على اختيار جاي بعدًا دينيًا وقداسة روحية ومهابة معنوية أضف إلى ذلك أن الأمير رينو المشهور بتهوره وحماقاته وقوته العسكرية في الأوساط الصليبية قد طالب أيضًا بتولي جاي العرش.

وكان رد فعل ريموند الثالث أن سافر إلى نابلس وجمع كل الأمراء المعارضين لاعتلاء جاي العرش، ولما علم بطريرك بيت المقدس بما قام به ريموند سارع بتتويج جاي.

وبذلك ضعفت كثيرًا جبهة ريموند الثالث إذ تسرب من حوله كثير من الأمراء الموالين له، واتجهوا إلى جاي، يشدون من أزره وأعلنوا ولاءهم له، وكان منطقهم

في ذلك مات الملك.. عاش الملك..

بالرغم من كل ما حدث لم يتراجع ريموند الثالث عن أحلامه في إسقاط جاي من على العرش، وبمرور الساعات وليس الأيام كان يكتشف عدم قدرته على تحقيق هذا الحلم الذي أصبح بعيدًا عنه، وصعب المنال.

لذلك قرر أن يتقرب من صلاح الدين مستغلاً المعرفة التي نشأت بينهما أثناء توليه منصب وصاية عرش بيت المقدس، حيث أرسل خطابًا لصلاح الدين يطلب فيه مساعدته على إسقاط جاي من على عرش بيت المقدس.

وكان رد صلاح الدين.. أنه سيفعل كل ما بوسعه لنصرة صديقه، بعد هذا الخطاب شعر صلاح الدين بأن النصر قريب منه، وأن المواجهة التي أعد لها العدة وينتظرها ويريدها بدأت بشائرها الفعلية تلوح في الأفق.. لأنه تأكد من خلال خطاب ريموند له.. بمدى عمق الخلافات داخل البيت الصليبي، وأصبح على يقين من قدرته على الطيران الحر في سماء المنطقة بعد أن بدأت جبهة أعدائه في التصدع.. ومن ناحية أخرى فها هو قد نجح أخيرًا في لم شمل الجبهة الإسلامية.

الخطوة قبل الأخيرة

عندما حلقت عينا صلاح الدين في نظرة خاطفة لتفقّد أحوال المنطقة وجد أن الأحوال في معسكره على خير ما يرام، وأنها في أسوأ أوضاعها عند الصليبيين، وهذا ما دعا بعض مساعديه بالضغط عليه من أجل البدء في أي وقت يختاره بالهجوم المباغت على الصليبيين من أجل طردهم من المنطقة بأسرها.. إلا أنه اعترض على مساعديه نظرًا لالتزامه بمعاهدة الهدنة التي وقعها مع الصليبيين، وأخبرهم أنه لم يتعود أن يتراجع عن وعوده أو يضرب عرض الحائط بالالتزامات التي قطعها على نفسه.

بقدر احترام مساعدي صلاح الدين لرأيه ورؤيته كان حزنهم على عدم قدرتهم على استغلال تلك الفرصة الذهبية.. وبينما هم في هذه الحالة تكفل رينو بحل المشكلة عندما قام بالإغارة على إحدى القوافل الإسلامية التي كانت محملة بالنفيس من الذهب واللؤلؤ والأموال بالإضافة إلى عدد كبير من الحجاج الذين قام رينو بسلب أموالهم الشخصية، كما قام بإرسالهم إلى الكرك كأسرى.

عندما وصلت أخبار ما فعله رينو إلى صلاح الدين غضب غضبًا شديدًا، وحاول مساعدوه دفعه لإعلان الحرب إلا أنه كظم غيظه، وأرسل رسالة إلى رينو يطالبه فيها أن يقوم برد الأموال والذهب الذي سرقه، وأن يفرج عن الأسرى، وفي نهاية الخطاب حذره من مغبة رفضه لما طلب منه لأن العقاب الذي سيتعرض له سيكون موجعًا، ولن يتحمله.

وفي خاتمة الرسالة ذكره صلاح الدين إلى أن وجود معاهدة الهدنة الموقعة من الطرفين تمنعهما من القيام بأي عمل مشابه لما قام به.

كان رد رينو على الرسالة التي تلقاها من صلاح الدين في غاية الفجاجة إذ قال: «قولوا لمحمد أن يخلصكم»، وهو هنا بالطبع يقصد الرسول ﷺ.

عندما قرأ صلاح الدين رد رينو الوقح ثارت ثائرته، لكنه كبح جماح غضبه، وهو قاب قوسين أو أدنى من الانفجار غيظًا.. وأرسل رسالة إلى الملك جاي ملك بيت المقدس شرح له فيها ما حدث من رينو، ويطالب جاي أن يرد الأموال والذهب والأسرى مع ضرورة تقديم اعتذار عما حدث مع الالتزام بعدم تكرار مثل هذه الفعلة في المستقبل.

سارع الملك جاي بالرد على صلاح الدين، ووضح له أن رينو قد رفض الانصياع لأوامره برد ما أخذه من المسلمين.. لكنه -جاي- قد اعتذار عما حدث، وأكد في نهاية خطابه على ضرورة الالتزام باتفاق الهدنة الموقعة بينهما.

ويرجع السبب إلى عدم اكتراث رينو بأوامر جاي هو إحساسه بأنه صاحب فضل عليه في اعتلاء عرش بيت المقدس.

عندما تسلم صلاح الدين رد الملك جاي، وقرأه لم يتعجب مما يقوله جاي لأنه كان يتوقعه، نتيجة علمه بما يحدث من أمور داخل البلاط الملكي لبيت المقدس.. لكنه في نفس الوقت اقتنع بينه وبين نفسه أن الحل الوحيد لمحو عار ما حدث هو الحرب.

لذلك قرر أن يستفيد بما فعله رينو أعظم استفادة تحقق له هدفه النهائي بطردهم من الأراضي العربية التي يحتلونها ومن ثم يكون قد أدب رينو.

اتجه تفكير صلاح الدين بشكل عملي إلى ضرورة منع توحيد الجبهة الصليبية، لذا أرسل إلى رجاله في حلب يأمرهم بسرعة عقد اتفاقية هدنة مع ريموند الثالث أمير طرابلس، وكذلك مع الأمير بوهيموند الثالث أمير أنطاكيا، وفي نفس الوقت بدأ في القيام بعملية تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين سواء كانت هذه القوة قوى بشرية أو مادية.

إلى حطين

اعتبر صلاح الدين ما فعله رينو هو البداية الحقيقية للعمل الفعلي الذي يجب عليه أن يركز فيه، لذلك أصدر في بداية شهر مارس من سنة ١١٨٧ أوامره النهائية لابنه الأفضل بضرورة التواجد في حوران حيث إن عمله الأساسي منذ لحظة وصول الأمر له هو تجميع إمدادات الجيش مع بقاء الاحتياطي الاستراتيجي للجيش تحت أمره.

وفي نفس التوقيت أصدر أمرًا بخروج الجيش المصري ليقابله في الشمال عند الكرك، في حين خرج هو -صلاح الدين- بنفسه على رأس جيش قوي من دمشق واتجه إلى منطقة بصرى وهي منطقة تقع على خطوط مرور القوافل التي

تقل الحجاج من دمشق إلى بيت الله الحرام، ويرجع السبب في وجوده في هذا التوقيت على خط مرور القوافل أن شقيقته وابنها محمد بن عمر كانا في القافلة الآتية من مكة إلى دمشق، لذلك رابض على الطريق حتى مرت القافلة بسلام في يوم ١١ مايو ١١٨٧ .

اتجه بعد ذلك بجيشه إلى الكرك المقر الأساسي لحكم الأمير رينو.. وبمجرد أن وصل إليها حاصرها بجيش قوامه اثنا عشر ألف فارس، وحوالي عشرين ألفًا من الجنود المشاة، حيث قاموا بهدم أسوارها، ودمروا كل ما قابلهم بداخلها، وبعد ذلك اتجه إلى الشوبك.

في نفس الوقت كان رينو قد علم بوصول إمدادات إلى صلاح الدين من مصر، فبنى خطته على أساس قطع الطريق على الإمدادات القادمة من القاهرة وتدميرها.

لكن صلاح الدين تحسبًا لمثل هذا الموقف قرر أن ينزل بجيشه حيث اتجه إلى مقر تجمع الجيش المصري القادم من القاهرة والتقى الجيشان هناك.

اتجه صلاح الدين بكل جيوشه نحو قلعة الكرك التي تحصن فيها رينو، وأصبح محصورًا فيها غير قادر على الحركة خاصة بعد أن وصلته أخبار ومعلومات عن التحركات التكتيكية التي يقوم بها صلاح الدين، وقد أفسدت هذه التحركات كل الخطط التي كان رينو ينوي تنفيذها.

ومما ساعد صلاح الدين على الحركة بحرية وهدوء سابق توقيعه على معاهدات الهدنة مع بوهيموند الثالث، وريموند الثالث.

وفي نفس هذا التوقيت حدث صدام سياسي حاد بين الملك جاي وريموند الثالث، وسرعان ما تحول هذا الخلاف السياسي إلى صدام عسكري مسلح بينهما.

ويرجع سبب الخلاف أن الملك جاي ملك بيت المقدس قرر أن ينتزع منطقة طبرية الموجودة بإقليم الجليل، وهذه المنطقة تقع تحت سلطة ونفوذ الأمير ريموند بوصفه أمير منطقة طرابلس.

وعندما علم الأمير ريموند بذلك أرسل الرسائل، والرسل إلى صلاح الدين طالبًا نجدته السريعة.. وبمجرد أن قرأ صلاح الدين تلك الرسائل لم يخيب رجاء حليفه الصليبي حيث أمده بالرجال والعتاد الذي يحتاجه ثم اتجه صلاح الدين على رأس جيش إلى منطقة بانياس القريبة من مكان القتال لمراقبته، ومتابعته عن كثب.

وفي نفس التوقيت كان الملك جاي على رأس جيوشه التي خرج بها متجهًا إلى طبرية لانتزاعها من يد ريموند.. لكن في الطريق استطاع بعض من أمراء الصليبيين من إقناع جاي بضرورة توجيه القوى الصليبية إلى الحشود العسكرية لصلاح الدين، وليس إلى ريموند، كما أقنعوا جاي بضرورة إجراء وساطة للصلح بينه وبين ريموند على الأقل في هذا الوقت العصيب، وبعد ذلك عندما ينتهي من أمر المسلمين يتخذ ما يراه مناسبًا في أمر ريموند.

وفي توقيت مواز لهذا التفكير من جاي، قرر صلاح الدين إرسال بضعة آلاف من الجنود للإغارة على عكا، ولما كان لابد لهذه القوة حتى تصل مقر تمركزها في بانياس إلى مقصدها في عكا أن تمر داخل أراضي إقليم الجليل، لذلك طلب صلاح الدين من ريموند الموجود بطبرية السماح للقوات الإسلامية بالمرور داخل إقليم الجليل لأجل الوصول إلى عكا.

عندما تسلم ريموند طلب صلاح الدين وجد نفسه في مأزق كبير إذ أنه لو وافق على طلب صلاح الدين فإن وضعه القانوني أمام الصليبيين سيكون خائنًا.. وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يرفض طلب صلاح الدين حليفه القوي في مواجهة الملك جاي.

المهم لم يستمر تفكير ريموند الثالث طويلاً، حيث أصدر أوامره بموافقته على السماح للقوات الإسلامية بالمرور داخل إقليم الجليل لكنه في نفس الوقت أعطى تعليماته لكافة المدن الصليبية الواقعة تحت نفوذه وسيطرته في إقليم الجليل مثل الناصرة، وطبرية بضرورة إغلاق أبوابها والعمل على تشديد الحراسة على أبوابها، وذلك لأنه خشي أن يكون طلب صلاح الدين بمرور جيشه ما هو إلا خدعة وبالتالي يسيطر صلاح الدين على كل تلك المدن دون قتال حقيقي.

عندما علم الصليبيون بهذا الأمر قرروا التصدي للقوات الإسلامية التي ستعبر الجليل، وأصدر الملك جاي قرارًا بأن يكون الأمير «جيرار دي ريدفورت» قائدًا عامًا للقوات الصليبية التي ستقوم بمهاجمة قوات صلاح الدين.

خرج جيرار على رأس جيش يتكون من خمسمائة فارس، وعند مدينة صفورية التقى الجيشان، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين كانت نتيجتها انتصار ساحق لقوات صلاح الدين التي استطاعت أن تقضي على كل أفراد الجيش الصليبي، وكان الناجون من الجانب الصليبي هم بعض من قادة الجيش الذين هربوا من ميدان المعركة عندما شعروا بأن الخسارة أو الموت هو حليفهم.

عندما علم الصليبيون باشتداد المعارك، وأنهم خسروا كل فرسانهم أرسلوا قوة معاونة سريعة لدعم جيرار، لكن هذه القوة وصلت بعد أن انتهى كل شيء، لذلك لم يكن صعبًا على الجيش الإسلامي أن يقوم بأسر كل أفراد الجيش الصليبي المعاون.

وقد تمخضت تلك الأحداث الكثيرة والملاحقة والتي توجتها معركة صفورية بعدة نتائج كان أهمها أنها أعادت الصليبيين إلى صوابهم، فقد تركوا طريق الخلافات الداخلية فيما بينهم حيث عاد ريموند إلى العمل من جديد تحت قيادة ولواء الملك جاي.

كما قرر مجلس حرب البلاط الصليبي العمل على تجميع حشودهم القتالية قرب صفورية، وحتى يعملوا على زيادة حماس مقاتليهم فقد اصطحبوا معهم صليب الصلبوت- الصليب الأعظم- الذي يؤمن المسيحيون أن المسيح عليه السلام قد صلب فوقه.

وعلى الجانب العربي وصلت إلى صلاح الدين أخبار تداعيات الموقف بعد معركة صفورية حيث علم أن ريموند انسحب من معاهدة الهدنة التي وقعها معه.

لذلك قرر صلاح الدين أن يزحف بجيشه إلى طبرية حيث اقتحمها، وحاصر قلعتها، لكنه لم يحاول أن يدكها وقد حدث ذلك في يوليو من سنة ١١٨٧، وكان يهدف من عدم اقتحام حصنها العمل على الاحتفاظ بالحيوية الكاملة لجيوشه بحيث لا يستنزفها في معارك جانبية، خاصة أنه كان قد حدد هدفه الاستراتيجي في هذه المرحلة الحرجة من مواجهة الصليبيين وهي العمل على الدخول في معركة فاصلة تنهي الحرب بين الطرفين.

وقد كان الهدف الرئيسي لصلاح الدين من مهاجمة طبرية هو دفع الصليبيين إلى ترك مواقع تمركزهم عند صفورية والاتجاه إلى حيث يعسكر بجيوشه، وبذلك تبدأ تلك المعركة المنتظرة وجيشه محتفظاً بكامل قوته، وحيويته، بينما يكون الجنود الصليبيون متعبين من عناء السفر الطويل.

نجحت خطة صلاح الدين في إثارة الصليبيين حيث دفعهم غضبهم مما حدث في صفورية إلى الزحف باتجاه طبرية إذ أن هذا الزحف تم بناء على قرارات اتخذها مجلس حرب البلاط الصليبي الذي تم عقده في عكا، وكان من أهم قراراته ضرورة وأهمية مفاجأة صلاح الدين بهجوم شامل عند طبرية.

وكان الوحيد من أعضاء مجلس الحرب الذي عارض هذا الاقتراح هو الأمير ريموند الثالث الذي أدرك الغرض النهائي لصلاح الدين، وقد أوضح ريموند

لمجلس الحرب مخاطر الزحف نحو طبرية، لأن الطريق إليها بالغ الصعوبة لأنه صخري في أغلب مناطقه، كما يفتقر إلى وجود أي مصادر للمياه.

ولم يكتف ريموند بتوضيح مدى وعورة الطريق الذي سيسلكونه، وإنما أوضح لهم أن صلاح الدين سينصرف من طبرية عائدًا إلى دمشق أو القاهرة إذا لم يشتبك معه الجيش الصليبي، وفي هذه الحالة قد يتحمس صلاح الدين أثناء ذهابه لدمشق أو القاهرة إلى الوقوف عند صفورية، وفي هذه الحالة يمكن للجيش الصليبي أن يهزمه بسهولة، لأن جيش صلاح الدين سيكون في هذه الحالة مجهدًا من أثر سيره في طريق صخري وعر، وفقير في موارده المائية.

كان أكثر المعارضين لرأي ريموند هو الأمير رينو الذي لم يكتف بالاعتراض، وإنما اتهم ريموند بأنه ما زال على ولائه وصداقته لصلاح الدين، وكان هذا الاتهام من رينو هو المرجح لرأيه عند الملك جاي الذي قرر أن يزحف نحو طبرية بالرغم من درجات الحرارة المرتفعة، والرطوبة الخانقة، حيث إن تحركهم بدأ في أوائل شهر يوليو ١١٨٧ .

وفي نفس توقيت عقد اجتماع مجلس الحرب الذي خيمت على وجوده الخلافات في الرأي بين ريموند ورينو.. فإن أخبار هذه الخلافات قد تطايرت خارجة من غرفة الاجتماع إلى حيث يجلس الفرسان والجنود والمشاة الذين اقتنعوا برأي الأمير ريموند، ولما أبلغوا بقرار الملك جاي الذي مال لرأي رينو كان خروجهم للحرب يشكل ضغطًا نفسيًا وعبئًا إضافيًا عليهم بالإضافة إلى وعودة الطريق، وحرارة الجو.

وعلى الجانب العربي المسلم تأكد صلاح الدين عن طريق دوريات استطلاعه المتقدمة التي ترصد تحركات الصليبيين بأن الزحف الصليبي قد بدأ، فأدرك لحظة سماعه تلك الأخبار أن الصيد الثمين الذي ينتظره بفارغ الصبر، ويقلق بالغ في طريقه لدخول المصيدة التي نصبها لهم.

لذلك قرر أن يتحرك بجيوشه إلى غرب طبرية، وأن تكون نقطة التمركز الرئيسي لقواته عند قرية حطين الغنية بالماء العذب، والمشهورة بكثرة مراعيها.

كما أعطى أوامره لدورياته المتقدمة بأن يتم استنزاف قوة الجيش الصليبي أثناء زحفه نحو طبرية عن طريق تكثيف عمليات الإغارة المحدودة عليه، وكان يهدف من وراء ذلك تكبيد الصليبيين أكبر خسائر مادية تستطيع عملها تلك الوحدات الاستطلاعية، بالإضافة إلى تشتيت تركيزهم وأيضًا إطالة مدة زحفهم نحو طبرية قد المستطاع، بحيث تكون أول المعارك التي يخوضها الجيش الصليبي مع الطبيعة القاسية، وقد نجح في ذلك صلاح الدين نجاحًا كبيرًا حيث إن المسافة بين صفورية إلى طبرية تبلغ خمسة وعشرين كيلو مترًا قطعها الجيش الصليبي في ثلاثة أيام عانوا فيها الكثير من قسوة الطبيعة ونقص المياه، ووعورة الطريق، والإغارات المحدودة التي تعرضوا لها كثيرًا طوال هذه الرحلة.

أخيرًا وصل الجيش الصليبي إلى أعلى هضبة طبرية التي ترتفع عن سطح البحر بحوالي ثلاثمائة متر، وكان الجنود والفرسان وأيضًا القادة في حالة يرثى لها من شدة التعب، والإرهاق حيث بلغ بهم العطش مداه لنقص المياه التي عانوا منها طوال رحلتهم.

وعندما وصلوا إلى طبرية وجدوا أنهم لا يستطيعون الوصول إلى منابع الماء الموجود أسفل الهضبة نظرًا لوجود صلاح الدين وجيوشه حول منابع المياه.

اشتدت شكوى الجنود والفرسان من نقص المياه، وأعربوا عن رغبتهم في مواصلة السير إلى منابع المياه لكن مجلس الحرب بقيادة الملك جاي استمع أخيرًا إلى نصيحة ريموند بعدم مواصلة السير، وأن الأفضل أن يقضي الجيش تلك الليلة فوق الهضبة.

عندما تأكد صلاح الدين من بقاء جيوش جاي فوق الهضبة، أمر رجاله

بتجهيز دوريات مراقبة للصليبيين الذين سيحاولون العمل على وصول بعض من أفرادهم إلى منابع الماء.

لذلك أعطى أوامره بالقتل الفوري لأي متسلل صليبي، وفي نفس الوقت أعطى أوامره لجنوده بإشعال الحطب، وفروع النباتات الجافة التي تنمو على الأرض الموجودة أسفل الهضبة، وكان يهدف من وراء هذا العمل الاستفادة من أن اتجاه الرياح سيحمل النار، ورائحة الدخان إلى جيوش الصليبيين المرابطة فوق الهضبة، وبذلك يجعل الأمر أكثر صعوبة عليهم.

استثمر صلاح الدين حلول الظلام بالليل، وأحاط هضبة طبرية بالكامل بجنوده، وببزوغ شمس النهار أصبح صلاح الدين في وضع هجومي أكثر من ممتاز، إذ أن جيوشه تحاصر جيوش الصليبيين من كل الجهات لأن حصاره كان على هيئة قطر دائرة كامل.

أخيرًا حانت اللحظة التي عمل لها وانتظرها كثيرًا، وطويلاً صلاح الدين حيث بدأت المعركة، وكان الجنود الصليبيون في حالة من التعب والإرهاق لذلك كانوا صيدًا سهلاً لجنود صلاح الدين الذين أمطروهم بوابل من السهام، والرماح، وأيضًا بكتل اللهب التي يتم قذفها من المنجنيق.

زادت إصابات الجيش الصليبي بالإضافة إلى قتل الكثير منهم، وبدا للعيان أن التنظيم الدفاعي لهم بدأ في الانهيار، وأن تنظيمهم الهجومي ليس له كيان واضح.

لذلك اندفع جنود صلاح الدين إلى قلب الجيش الصليبي ليقضوا على ما تبقى منهم، وكان هجوم صلاح الدين على هيئة سلاسل متتالية أخذت شكل الطوفان الذي يكتسح في طريقه كل ما يقابله لذلك اضطر أغلب الجنود الصليبيين الموجودين في أرض المعركة إلى إعلان استسلامهم، وكان الدافع

الحقيق لإعلان استسلامهم هو رؤيتهم قتل أسقف عكا وهو الذي كان يحمل صليب الصلبوت - الصليب الأعظم-.

وفي نفس الوقت كان جنود صلاح الدين مستمرين في الزحف نحو قمة جبل طبرية التي كان الملك جاي متحصنًا بها، ومعه بعض من أخلص فرسانه الذين أسرهم رجال صلاح الدين.

بينما كان الأمير ريموند ومعه قلة من رجاله قد هبطوا من قمة الهضبة، وانسحبوا من أرض المعركة حيث أسرعوا الخطا باتجاه صور هربًا من القتل الدائر.

مع حلول مساء هذا اليوم كان الأمر قد حسم عمليًا على أرض المعركة بالانتهاء الكامل للجيش الصليبي سواء بموتهم أو أسرهم، أو هربهم من أرض المعركة.

وبينما صلاح الدين جالس في خيمته وصل الملك جاي والأمير جيرار، والأمير رينو، وغيرهم من القادة الصليبيين الذين تم أسرهم، وقد دخلوا جميعًا على صلاح الدين، وهم مكبلين بالأغلال، فأمر صلاح الدين جنوده بفك وثاق الملك والأمراء، وأجلسهم معه في خيمته.

بعد حل الوثاق من أيدي وأقدام الملك جاي الأسير، وأمرائه قدم صلاح الدين إناء زجاجي مملوء بالماء المثلج إلى جاي فشرب حتى ارتوى ثم ناول الإناء بعد ذلك إلى رينو الذي تلقفه سريعًا من يد جاي وشرب.

وقد غضب لذلك صلاح الدين غضبًا شديدًا لدرجة أنه زأر في وجه جاي وقال له: « إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني حتى ينال أماني».

وتفسير غضب صلاح الدين لما حدث، أن عادة العرب التي تدل على سمو أخلاقهم وكرم طباعهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من طعام أو شراب قدمه له

الذي قام بأسره، فإن هذا معناه أن الذي قام بعملية الأسر -أي المنتصر- قد أعطى الأمان للأسير.

ولما كان صلاح الدين لم يعط الماء لرينو فإنه طبقًا لعرف العرب لم يمنحه الأمان، لكنه أعطى الماء للملك جاي الذي منحه صلاح الدين الأمان.

ونتيجة لهذا الموقف فإن صلاح الدين وجه حديثه إلى رينو الطائش حيث ذكر له كل ما قام به من أفعال نجسة، مثل التي فعلها مع المسافرين العزل في القوافل التي كان يغير عليها، ويهاجمها، بالإضافة إلى عدم التزامه بأي عهد أو ميثاق يوافق عليه ويوقعه.. وكان رد رينو وقحًا كالعادة إذ قال إن هذه عادة الملوك، عندئذ استل صلاح الدين سيفه من غمده بسرعة فائقة وأطاح برأس رينو من على أكتافه بضربة واحدة.

عندما شاهد الملك جاي، ومن معه من أمراء هذا الموقف المباغت والسريع شعر كل منهم أن دوره آت ولا ريب في ذلك، ولما لاحظ صلاح الدين هذا الشعور على وجوههم أخبرهم أن من عادات العرب أن لا يقتل الملك الملوك أو الأمراء، وهم في الأسر.

ثم وضح لهم أنه فعل ما فعل مع رينو؛ لأنه قد نذر دمه منذ أن أهدر دماء المسلمين العزل، وأيضًا بسبب رغبته في غزو واحتلال مكة الكرمة، والتي تعني كل ما هو مقدس ومهاب في عقل ونفس كل مسلم على وجه الأرض.

بعد ذلك أمر صلاح الدين رجاله بنقل الملك جاي وباقي الأسرى من الأمراء إلى الأماكن المخصصة لإقامتهم، وأعطى أوامره لرجاله بضرورة مرور طبيب على الأسرى للكشف عليهم خاصة الجرحى منهم، وأكد أيضًا على ضرورة علم كل أسير بمواعيد تقديم الطعام له.

بعد أن هدأ غبار المعركة اتجه صلاح الدين إلى دمشق، وصحب معه في هذه

الرحلة الملك جاي، وأمراءه الأسرى.

وأعطى أوامره بأن يتم عرض الفرسان وجنود المشاة الأسرى في الأسواق لبيعهم، وقد وصل سعر الأسير في السوق إلى ثلاثة دنانير، وهو مبلغ زهيد، وبخس ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة عدد المعروض في سوق النخاسة منهم.

وجدير بالذكر أن معركة حطين لم تكن مجرد معركة انتصر فيها جانب على آخر، وإنما كانت نصرًا في الحرب التي بدأت قبل تلك المعركة بحوالي مائة عام، حيث إن هذه المعركة أنهت أكبر حركة استعمارية شهدها العالم، وتابع نموها وتطورها، وأيضًا انهيارها على يد صلاح الدين في العصور الوسطى.

وعلى ذلك يمكن القول إن تداعيات تلك المعركة بالنسبة للمسلمين أنها كانت الفاتحة الحقيقية لانهيار الاحتلال الصليبي لبلادهم، كما أنها أفرزت السيطرة الكاملة، وإحكام القبضة من صلاح الدين على المنطقة بكاملها ... وبالتالي شعر النسر صلاح الدين إنه قد أصبح أخيرًا قادرًا على الطيران المرتفع، أو المنخفض في سماء المنطقة دون أدنى خوف يخالج نفسه بعد أن بسط جناحيه بكامل امتدادهما على الموقف بأكمله.

أما أبرز النتائج التي تمخضت عنها تلك المعركة على الحانب الصليبي كانت وجود الملك جاي وخيرة وأفضل أمرائه في الأسر، والأهم من ذلك أن أفضل الفرسان وجنود المشاة الصليبيين قد لقوا حتفهم في حطين، للدرجة التي دفت المؤرخ المسلم أبو شامة أن يقول: «من شاهد القتلى يوم حطين يقول إنه لا يوجد أسرى، أما من رأى الأسرى يعتقد أن الموت لم يقترب من الصليبيين»!!

تأكيد الانتصار والتسامح الديني

ترجم صلاح الدين عمليًا، وبسرعة النتائج التي استخلصها من انتصاره الساحق في معركة حطين.. لذلك لم يضيع الوقت، واتجه بجيوشه صوب البلاد

والمدن التي مازالت تحت الاحتلال الصليبي، وأخذ يفتح الواحدة تلو الأخرى، وقد اتجه أول ما اتجه إلى قلعة طبرية الحصينة التي استعصت عليه كثيرًا في الماضي، لكن في هذه المرة استطاع أن يدك حصونها، وأن يأسر كل من فيها من فرسان وجنود.

وقد سمح للأميرة أشيفا زوجة الأمير ريموند حليفه السابق بأن تخرج من المدينة مع احتفاظها بكامل كرامتها الأدبية، والمادية التي تمثلت في احتفاظها بكامل أموالها ومجوهراتها، ولحقت بزوجها الذي هرب من معركة حطين.

وأثناء فتوحاته للمدن الصليبية طلب منه الأمير باليان الثاني المتزوج من الملكة ماريا كومنن أرملة الملك عموري الأول، أول الملوك الصليبيين على بيت المقدس بعد نجاحهم في احتلالها، طلب منه السماح له بالذهاب إلى بيت المقدس فوافق صلاح الدين على ما طلبه باليان شرط ألا يبقى في المدينة إلا ليلة واحدة ونهارًا واحدًا.

وقد اعتبر صلاح الدين أن هذا الوقت الممنوح لباليان كافٍ جدًا لأخذ زوجته وأولاده الموجودين هناك على أن يتجه بعد ذلك إلى طرابلس للإقامة مع الأمير ريموند الثالث.

وصل باليان إلى المدينة، ووجدها في حالة شديدة من الضعف والخراب، إذ أن معظم فرسانها قد تم قتلهم أو أسرهم في حطين، لذلك لم يبق فيها إلا النساء والرهبان، وبعض كبار السن من الرجال.

وكان الموجودون على درجة متردية من انهيار روحهم المعنوية بعد أن وصلتهم أخبار أسر ملكهم وأمرائهم، وكبار قادتهم العسكريين بالإضافة إلى وفاة أسقفهم الذي كان يحمل صليب الصلبوت، وحتى يتم تخيل مدى نقص الرجال في المدينة أن كل خمسين امرأة كان يقابلهن عجوز واحد، أو راهب واحد.

عندما علم أهالي المدينة بوصول الأمير باليان إليها حيث التفوا حوله، وطالبوه بالبقاء معهم وأخبروه أنهم على استعداد للوقوف خلفه من أجل طرد المسلمين من المدينة، والعمل على منعهم من البقاء فيها، في تلك اللحظة نسي باليان طلبه لصلاح الدين، والشرط الذي ألزمه به صلاح الدين، وقرر أن يجمع كل أبناء الفرسان الذي قتلوا في حطين بالإضافة إلى التجار والصناع وكل من يقدر على حمل سلاح.

وبعد ذلك قام باستدعاء بطريرك كنيسة القيامة واتفق معه على حصوله على كل المعادن النفيسة الموجودة داخل الكنيسة سواء كانت ذهبية أو فضية من أجل صهرها ثم تحويلها إلى نقود تحمل اسمه، حتى يستطيع بها أن يشتري كل ما يلزمه من احتياجات عسكرية، وأيضًا أن يدفع من هذه النقود رواتب الجنود.

وفي حقيقة الأمر كانت كل هذه الإجراءات التي سعى باليان إلى إقرارها وتنفيذها على أرض الواقع غير ذات قيمة حقيقية نظرًا لافتقاد المدينة إلى المقاتلين المدربين.

مناورة ذكية:

كان صلاح الدين خائفًا بشدة من وصول دعم أوروبي للصليبيين لذلك بنى استراتجيته العسكرية بعد حطين على ضرورة الاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية حتى يستطيع أن يحرم الصليبيين من سيطرتهم على تلك القواعد البحرية التي تسهل عملية ارتباطهم ببلدانهم الأصلية في أوروبا.

وكان متأكدًا من أن نجاحه فيما يفكر فيه يجعل الصليبيين محصورين داخل الأراضي الصحراوية المتاخمة للشواطئ والسواحل، وهذا يعمل على تسهيل العمل على إسقاطه لتلك البلاد والحصون التي يحتلها الصليبيون نظرًا لصعوبة وصول أية إمدادات عسكرية أو غذائية لهم في هذه الحالة.

ومن ناحية أخرى كان يعلم أن استيلاءه على الموانى الصليبية سيعمل على زيادة وسهولة ويسر دعم الاتصال العسكري بين الشام، ومصر، وبذلك تتحقق له مرونة تكتيكية غير متوافرة له حاليًا، ومن ثم يستطيع أن يسيطر على الأمور بشكل أفضل مما هو متاح له مما يمكنه من تحقيق النصر في أية معركة تنشب بينه وبين الصليبيين.

ونتيجة لهذا الفكر العسكري المتطور الذي آمن به اتجه بقواته إلى عكا، لما لها من أهمية استراتيجية كبيرة نتيجة قربها من بيروت، صيدا، صور، دمشق، طبرية، وبيت المقدس.

ولذلك اتجه إليها لمعرفته أنه في حالة نجاحه في تطهيرها من الصليبيين يكون بذلك قد قضى على أي تفكير صليبي في استخدامها كرأس جسر للانقضاض عليه وكسر شوكته.

وقد كان حاكم عكا الأمير جوسلين الثالث موجودًا داخل قلعتها الحصينة بعد أن هرب من معركة حطين مع الأمير ريموند، والأمير باليان الثاني، وكان جوسلين قد أعلن ولاءه التام لريموند الثالث حتى يضمن حماية ريموند له لأنه سلم له المدينة.

وكان مشهورًا عن جوسلين ضعفه النفسي الشديد وسرعة انهيار مقاومته، لذلك فإنه بمجرد أن رأى مقدمة جيش صلاح الدين تقترب من عكا من أجل حصارها قبل اقتحامها.. قام بإرسال رسول إلى صلاح الدين، يعرض عليه تسليم المدينة وحصنها، وميناءها بشرط ألا يقوم صلاح الدين بقتل الفرسان والجنود الصليبيين، وأيضًا أن يسمح لكل الصليبيين الموجودين بالمدينة والحصن بالخروج بكل ما يمتلكونه من أموال.

وافق صلاح الدين على عرض استسلام جوسلين له، ودخل المدينة بعد أن

استلم مفاتيحها يوم ١٠ / ٧ / ١١٨٧ أي بعد خمسة أيام فقط من انتهاء معركة حطين.

وفور دخول صلاح الدين للمدينة أعطى الأمان التام، والكامل لكل الأفراد الصليبيين الموجودين بها، كما خيرهم بين الإقامة في المدينة أو مغادرتها لمن يرغب دون أية ضغوط عليهم في ظل أي اختيار يختارونه.

ويجب ذكر أنه قد حدث في يوم الثامن من يوليو ونهار يوم التاسع من شهر يوليو قد شهدا رفض بعض الفرسان الصليبيين بعض أهالي المدينة لعرض استسلام المدينة الذي قدمه جوسلين إلى صلاح الدين .

وقد عبر الرافضون عن عدم موافقتهم على قرار الاستسلام عن طريق إشعال الحرائق داخل الأحياء التجارية، وفي بعض المباني المخصصة للسكن، وأعلنوا عن رغبتهم في مقاومة جيش صلاح الدين.

لكن بمجرد أن بدأت طلائع جيش صلاح الدين في دخول المدينة حتى هدأت الأمور تمامًا، ومما ساعد أيضًا على عدم تصعيد الموقف داخل المدينة أن صلاح الدين أمر جنوده بالتزام الهدوء، وعدم قتال أي من أهلها نظرًا لتوقيعه على اتفاقية استسلام المدينة مع جوسلين.

لذلك عندما وجد أهالي المدينة من الصليبيين ذلك من صلاح الدين ورجاله خبت حدة مقاومتهم، وأعلنوا هم أيضًا استسلامهم للمسلمين.

وكان أول شيء فعله صلاح الدين بعد دخوله المدينة هو ذهابه إلى سجونها حيث قام بفك أسر أكثر من أربعة آلاف أسير من المسلمين أغلبهم من المواطنين العزل الذين كان يتم اختطافهم بواسطة الجنود الصليبيين.

وبسقوط مدينة عكا الهامة في أيدي المسلمين تأكد أن صلاح الدين أصبح هو صاحب الكلمة العليا في المنطقة كلها سواء على المسلمين أو على الصليبيين،

والدليل على ذلك أنه قد دخل إلى تلك المدينة الهامة دون أن يسقط قتيل واحد، وهو ما يؤكد قوته وخوف جوسلين خاصة منه، والصليبيين بشكل عام.

وقد أدى سقوط عكا في يد صلاح الدين بهذه الطريقة إلى استمرار الحياة فيها بشكل طبيعي، ولم تتأثر الحركة التجارية في المدينة المشهور عنها أنها المركز التجاري الرئيسي للصليبيين في الشام، كما أنها قبلة التجار الآتين من جنوة والبندقية، وإقليم كاتلونيا الأسباني.

بعد اطمئنان صلاح الدين على تمام إحكام قبضته على «عكا» بدأ في توجيه قواته للاستيلاء على الناصرية، معليا، الفولة، والطور، وكل الحصون والقلاع القريبة من عكا بغرض إتمام سيطرته على كل المنطقة الجغرافية التابعة لعكا، وبذلك يأمن من أي شر قد يأتيه من الصليبيين.

وفي نفس التوقيت الذي اتجه فيه صلاح الدين إلى توابع عكا لفتحها كان العادل شقيق صلاح الدين ينفذ أوامره بالاستيلاء على باقي المدن الساحلية في فلسطين، وقد نجح في الاستيلاء على حصن مجدل يابا وهو ميناء موجود بين يافا، ونابلس، واستطاع بعد ذلك الاستيلاء على يافا رغم شدة المقاومة التي أبداها الصليبيون في الدفاع عنها.

لكنه استطاع أن يحكم حصاره عليها، وهاجمها بشراسة إذ ضربها بالمنجنيق، وأمر جنوده المشاة باقتحام أسوارها من أضعف نقاط تحصينه حيث تبع ذلك دخول فرسانه إليها مما اضطر الصليبيين إلى إعلان استسلامها له.

وفي نفس التوقيت أيضًا كان الأمير حسام الدين ابن شقيقة صلاح الدين يستولي على سبسطية، وبعد ذلك اتجه بقواته إلى قلعة «تبنين» حيث قاومته مقاومة عنيفة فما كان منه إلا أن أرسل رسالة استغاثة إلى خاله وضح له فيها الموقف على الطبيعة الذي ما إن قرأ الرسالة حتى اتجه بجيوشه إليه، واستطاع

أن يحكم حصاره على القلعة حتى سقطت.

وكان صلاح الدين عندما رأى مدى المقاومة الشرسة التي يدافع بها الصليبيون عن القلعة أمر رجاله بتجهيز كرات اللهب التي يتم قذفها بالمنجنيق،ووضع جيشه في وضع الاستعداد التام للهجوم ثم أنذر قادة القلعة أنهم إن لم يعلنوا استسلامهم مع حلول الليل فإن الليل سيتحول إلى نهار من كثرة كرات اللهب التي سيتم قذف القلعة بها.

لذلك أعلن قائد القلعة استسلامها بعد أن صعد إلى أحد أركان القلعة ورأى مدى الدمار الذي يمكن أن يلحق بها، وأن رجاله لن يستطيعوا الخروج منها سالمين بأي شكل من الأشكال، وقد حدث ذلك في يوم ٢٩ يوليو ١١٨٧ .

بمجرد أن أعلن قائد القلعة استسلامه وفَّى صلاح الدين بالوعد الذي كان قد أعطاه لقائد القلعة، حيث سمح للجنود الصليبيين بالخروج بأمان منها.

ومع آخر يوم من شهر يوليو زحف صلاح الدين إلى صيدا التي استسلمت له في نفس لحظة وقوفه على أبوابها، وهكذا فتحها دون إراقة نقطة دم واحدة، وقد سمح صلاح الدين لأفراد جيشها بعد أن سلموا سلاحهم لرجاله بأن يرحلوا إذا ما أرادوا ذلك أو أن يبقى منهم في المدينة من يشاء.

بعد اطمئنانه على أن رجاله قد تسلموا صيدا، وأن الأمور استقرت له زحف بجيشه إلى حلمه القديم، إلى بيروت أجمل بلاد وموانى الشام.

عندما وصل إليها حاول من فيها من الصليبيين أن يتحصنوا خلف أبواب قلعتها، وأسوارها المتينة القوية، فما كان منه إلا أن شدد حصاره حولها، وأعطاهم وعدًا بالأمان في حالة استسلامهم فوافق أهلها على الفور خاصة وأن أغلبهم من التجار والصناع، ولم يكن بها إلا القليل من الفرسان الذين يستطيعون فقط الدفاع عن أنفسهم، وليس عن المدينة، وقد دخل إلى المدينة بعد استسلامها

يوم السادس من شهر أغسطس.

بعد ذلك قرر صلاح الدين الخروج إلى جبيل، فعرف بذلك الأمير هيو الثالث حاكم المدينة، فطلب من حراسه المسلمين -كان أسيرًا من أسرى طبرية- أن يسمحوا له بمقابلة صلاح الدين.

أبلغ الحراس صلاح الدين برغبة هيو في مقابلته، فوافق على ذلك وعندما أصبح هيو أمامه مكبلاً بالقيود أمر صلاح الدين حراسه بفك وثاقه، وأشار لهيو بالجلوس، ثم سأله عن السبب في طلبه الاجتماع معه.

أخبره هيو أنه على استعداد لتسليم المدينة إليه دون قتال شرط أن يقوم صلاح الدين بإطلاق سراحه من الأسر.

وافق صلاح الدين على هذا الشرط ، فأخذه صلاح الدين معه حيث أعطى هيو أمرًا لقائد الجيوش الصليبية في المدينة بإعلان استسلامها مقابل ألا يمس صلاح الدين حياة أي مقاتل صليبي موجود بالمدينة، فأعلن القائد على الفور استسلام المدينة.

وكعادة صلاح الدين فإنه ترك للصليبيين حرية الاختيار بين الإقامة في المدينة، أو مغادرتها، وقد اختار أغلب الصليبيين الموجودين بالمدينة مغادرتها حيث قرروا الذهاب إلى صور التي حظيت بأكبر تجمع للصليبيين الذين بقوا على قيد الحياة من كل المدن التي فتحها صلاح الدين.

في تلك اللحظة أدرك صلاح الدين أن فتح صور سيكون صعبًا بعد أن اتجه إليها كل الفرسان والجنود والأمراء الصليبيين الذين نجوا من الحرب، لذلك قرر أن يترك أمرها مؤقتًا.

بعد أن انتهى صلاح الدين من أمر جبيل، زحف بجيشه إلى عسقلان ذلك المكان الذي سبب له الكثير من القلق، والعديد من المشاكل باعتبار أن موقعها

يسمح لها بقطع خطوط مواصلاته بين مصر والشام.

عندما وصل صلاح الدين بجيشه إلى عسقلان وحاصر قلعتها وجد أنها ستحتاج إلى مجهود، وحتى يستطيع فتحها سيموت الكثير من المسلمين والصليبيين.

لذلك فكر في استدعاء الملك جاي والأمير جيرار،، ووعدهما بإطلاق سراحهما من الأسر إذا ما استطاعا استغلال نفوذهما الأدبي على حاكم عسقلان من أجل إعلان استسلامه.

وافق الملك جاي، والأمير جيرارد على الفكرة التي طرحها صلاح الدين، وشرعا في بدء المفاوضات مع أهل وحاكم المدينة.. إلا أنهما فشلا لأن الحاكم وأهل المدينة انهالوا عليهما بالسباب ورفضا الانصياع لنصيحتهما بالتسليم.

بهذا الرفض لم يكن أمام صلاح الدين سوى إحكام حصاره العسكري حول المدينة، وقام باستفزاز أهلها، فما كان منهم إلا أن بدؤوا في اتخاذ إجراءات دفاعية إضافية.

استمر على استفزازهم عن طريق إيهامهم بقرب بدء هجومه واقتحامه للمدينة، فيكون رد فعل أهلها زيادة الإجراءات الدفاعية مع محاولتهم البدء في الهجوم، واستمر على هذا الحال عدة مرات.

وكان غرضه الأساسي من ذلك هو استنفاد جهودهم وإمكانياتهم، ومواردهم من أجل إجبارهم على إعلان استسلامهم دون قتال.

وأخيرًا نجح فعلاً فيما كان يخطط له إذ أعلن حاكم المدينة عن رغبته في إعلان استسلام المدينة.

بمجرد أن أبدى حاكم المدينة رغبته في الاستسلام أعطاه صلاح الدين الأمان، واشترط عليه أن يترك جنوده وفرسانه سلاحهم، وبعد ذلك فإن من يريد

منهم البقاء في المدينة يستطيع أن يستمر في العيش بها، ومن يريد منهم أن يخرج إلى صور يخرج.. أذعن الحاكم والأهالي ونفذوا ما طلبه منهم صلاح الدين، وبقي منهم في المدينة من أراد، وخرج منهم إلى صور من رغب.

وفي نفس هذا التوقيت كان الأمير جيرار يقوم بجهود عظيمة من أجل دفع قادة غزة والنطرون، وبيت جبرين على إعلان استسلامهم لصلاح الدين، وتسليم قلاع تلك المدن له..

وقد استجاب قادة وحكام تلك المدن، والقلاع لدعوة الأمير جيرار فأطلق سراحه صلاح الدين كما وعده سابقًا، أما الملك جاي فإنه لم يستطع إنجاز أي طلب من طلبات صلاح الدين فتم إرساله إلى نابلس، وقبل سفره طلب من صلاح الدين أن يسمح له بأن تأتي زوجته إلى نابلس ليعيشا سويًا، فوافق صلاح الدين وأرسل إلى الأميرة سيبيل -زوجة جاي- التي كانت تعيش في بيت المقدس رسالة أخبرها فيها برغبة زوجها ، وقد رحبت سيبيل بالدعوة، ووافقت على السفر إلى نابلس في حماية رجال صلاح الدين حتى يلتئم شمل أسرتها.

وبتمام فتح عسقلان وغزة، وبيت جبرين، والرملة، والداروم يكون صلاح الدين قد استولى على كل المناطق الداخلية التي كان الصليبيون يحتلونها، وها هو قد أخضعها لسيطرته مرة أخرى وبذلك لم يعد أمامه سوى بيت المقدس.

الهدف .. بيت المقدس

أثناء حصار صلاح الدين لمدينة عسقلان وصل إليه وفد من رجال باليان الحاكم الفعلي لمدينة بيت المقدس وذلك بغرض استطلاع رأي صلاح الدين حول موقفه من المدينة المقدسة.

عرض صلاح الدين على الوفد أن يعرضوا على باليان عرضه المتمثل في إعلان استسلام باليان، ومن ثم المدينة على أن يدخلها -صلاح الدين- دون قتال

مقابل أن يعطي كل الصليبيين الذين يعيشون فيها الأمان وهذا يعني أن من أراد منهم الخروج من المدينة ضمن له صلاح الدين الخروج الآمن منها، وهو يحمل كل أمواله ومتاعه الذي يريد الخروج به أما من أراد منهم البقاء في المدينة فسيستمر في العيش داخل المدينة تحت الحكم العربي على ألا يتم المساس بوضعه المالي أو الاقتصادي أو المهني، أو الاجتماعي.

كان رد وفد باليان هو رفضهم القاطع والحاسم للعرض الذي طرحه عليهم صلاح الدين، وأعلنوا أمامه أنهم سيقاتلونه حتى آخر نفس لآخر رجل أو طفل أو امرأة فيهم.

عندئذ كان رد صلاح الدين عليهم هو أنه سيقوم بفتح المدينة المقدسة بحد السيف بالرغم من عدم رغبته في وصول الأمر لهذه المدينة بالذات إلى هذا الحد،وذلك يرجع لاحترامه قدسية المدينة، وجلالها عند الطرفين الإسلامي والمسيحي.

بعد أن انتهى صلاح الدين من تحرير كل المدن الداخلية التي كانت تحت السيطرة الصليبية، فإنه تحرك بجيوشه إلى المدينة المقدسة، ووقف على أبوابها، وحاصرها، وقبل أن يتخذ أي إجراء عنيف لفتحها عنوة بعث برسالة إلى باليان طالبه فيها بتحكيم العقل، وأن يعلن استسلام المدينة حقنًا للدماء، وأخبره أن شروط إعلان استسلام المدينة كما أبلغها لرسله الذين قابلوه أثناء حصاره لعسقلان.

انتظر صلاح الدين رد باليان على عرض الاستسلام.. وقد كان جوابه مخيبًا لآمال صلاح الدين حيث إنه أصر على رده السابق الذي قاله رسله لكن في هذه المرة زاد بليان أن الحرب هي خياره الوحيد، وأن على صلاح الدين إن أراد دخول المدينة أن يدخلها بالحرب حيث لا تراجع أو استسلام.

بمجرد انتهائه من قراءة رد باليان أعطى أوامره لقادة الجيش بإحكام الحصار، وتشديده حول المدينة مع ضرورة منع دخول أو خروج أي شخص أو شيء منها أو إليها.

وركب حصانه، ومعه بعض مساعدوه حوله، وأخذ يلف ويدور حول أبواب المدينة ليكتشف بنفسه أكثر المناطق ضعفاً في سورها.

بعد هذه الجولة استقر رأيه أن أفضل مكان للبدء منه في اقتحام المدينة هو جانبها الشمالي عن باب عمرو.

مع بزوغ فجر يوم عشرين سبتمبر ١١٨٧ بدأ صلاح الدين هجومه الشامل على المدينة، وكانت نقطة بدء الهجوم المكان الذي سبق أن اختاره كبداية حقيقية ومؤثرة لهجومه.

لم يمض وقت طويل حتى كان جنوده المشاة قد استطاعوا هدم السور من جانبه الشمالي، وبذلك تكون أبواب الجحيم قد انفتحت على من بداخل المدينة.

إذ أن دخول الجنود المشاة وفرسان صلاح الدين إليها كان على هيئة موجات متتالية لا يفصل بين الموجهة الهجومية والأخرى أي وقت، وهذا ما جعل المشاهد لتلك الأمواج الهجومية يعتقد أنها موجة هجومية واحدة طويلة لا تنقطع.

في تلك اللحظة أرسل باليان بمندوب عنه إلى صلاح الدين يبلغه فيها بأنه قد وافق على تسليم المدينة طبقاً للشروط التي سبق وأن أعلنها صلاح الدين.

وقد كان رد صلاح الدين أن استسلام باليان، والمدينة يجب أن يكون دون قيد أو شرط لأن الشروط التي سبق أن أعلنها كانت قبل خوض غمار المعركة، وقال له: إنك -يقصد باليان- قد رفضت هذه الشروط.

استمر صلاح الدين في هجومه المكثف على المدينة وبطبيعة الحال كان مرور الوقت يعني اتجاه الأمور من سيئ إلى أسوأ داخل المعسكر الصليبي، وأمام

طوفان القتلى الصليبيين اجتمع مجلس حكم المدينة من الصليبيين بقيادة باليان الذي أدرك أنه غير قادر بالمرة على حماية المدينة أو حتى حماية نفسه.

وما زاد الطين بلة على باليان أن المسيحيين الأرثوذوكس من العرب قد رحبوا بفتح صلاح الدين للمدينة، بينما كان المسيحيون الكاثوليك هم الرافضين لدخول صلاح الدين إليها، وهكذا أصبح الوضع ينذر بكارثة حقيقية.. أدرك أبعادها باليان.

أمام هذه المستجدات التي عرف تفاصيلها باليان قام بإجراء مفاوضات ومناقشات سريعة داخل الجانب الصليبي، حيث استقر الرأي النهائي على ضرورة أن يخرج باليان بنفسه إلى صلاح الدين، ويطلب منه العفو، ويعلن له مجدداً أنه قد قبل شروط الاستسلام التي كان صلاح الدين قد وصفها أولاً.

لم يكن أمام باليان إلا الموافقة على رأي مساعديه فخرج إلى صلاح الدين، وأعلن أمامه ما اتفق عليه حكماء بلاطه، لكنه وجد أن صلاح الدين مصر أن يتم إعلان استسلام المدينة، دون قيد أو شرط.

وأمام الرأي القاطع لصلاح الدين في هذا الأمر قال له باليان: إنه سيعود إلى معسكره، وسوف يقوم بقتل كل العجائز والنساء، والأطفال، أما الرجال فسوف يستمرون في حمل السيوف.

بمجرد أن غادر باليان مجلس صلاح الدين استدعى على الفور صلاح الدين مساعديه، وعرض عليهم ما قاله باليان، فكان رأي أغلب القادة أنهم قادرون على إبادة كل الصليبيين الموجودين داخل المدينة قبل أن يحل الظلام عليها.

وكان هناك رأي آخر لأقلية من القادة، وهو الرأي الذي فضل صلاح الدين أن يأخذه طريقاً لحل تلك المشكلة، وكان رأي الأقلية يطالب صلاح الدين بالعمل على حقن الدماء في المدينة المقدسة خاصة أنه يعلم أنهم قادرون على الإبادة

الكاملة لكل الصليبيين الموجودين بالمدينة، وذكروه أيضًا أن باليان نفسه يعرف مدى قدرة صلاح الدين على الإبادة الكاملة للمدينة.

وهكذا أصبحت المشكلة الملحة والأكثر أهمية عند صلاح الدين هي مشكلة سباق مع الزمن.. وذلك حتى لا يبدأ باليان في قتل رعاياه من الصليبيين.

أمر صلاح الدين رجاله بضرورة إرسال مندوب عنه إلى باليان بأقصى سرعة لكي يخبره أنه قد وافق على ترك الصليبيين يغادرون المدينة لكن بشرط أن يدفع كل رجل سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، مبلغ عشرة دنانير، وأن تدفع كل امرأة مبلغ خمسة دنانير، وأن يتم دفع مبلغ دينار واحد عن كل طفل أو طفلة.

وافق باليان على ما سمعه من رسول صلاح الدين، لكن مع بداية تنفيذه لهذا الاتفاق واجهته مشكلة، وهي وجود أكثر من سبعة آلاف صليبي معدم غير قادر على دفع المبالغ التي قررها صلاح الدين حتى يتسنى لهم الخروج من المدينة.

وعلى الرغم من أنه حاول مع أغنياء الصليبيين في أن يقوموا بتحمل قيمة الفدية التي طلبها صلاح الدين نيابة عن الفقراء إلا إنهم رفضوا دفعها!!

لذلك أرسل باليان إلى صلاح الدين برسالة يشرح له فيها المشكلة التي أمامه، فما كان من صلاح الدين إلا أن منحه مهلة قدرها أربعون يومًا ليتم دفع المبالغ.

كما طالبه أن يقوم بدفع المبالغ المطلوبة من الفقراء نيابة عنهم بصفته حاكمًا لهم، وإن لم يستطع فإن عليه أن يدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار عن كل المعدمين والفقراء من الصليبيين، وإن لم يستطع الدفع يصبح كل صليبي لم يدفع قيمة الفدية الخاصة به بنفسه أو عن طريق باليان مملوكًا، وبالتالي لا يحق له مغادرة المدينة إلا بإذن شخصي من صلاح الدين، أو من يوكل إليه هذه المهمة.

في تمام ظهيرة يوم الجمعة الثاني عشر من أكتوبر دخل صلاح الدين إلى المدينة، ووفى بعهده الذي قطعه على نفسه، وهو السماح لكل صليبي دفع الفدية

فإن يخرج من المدينة، ومن لم يستطع فإنه باق بها.

لكن في عصر ذات يوم دخوله إليها أصدر صلاح الدين أمرًا إلى أخيه العادل يخبره فيه بأنه قرر خروج الفقراء الذين لم يستطيعوا دفع الفدية أما من أراد منهم البقاء للعيش في المدينة فإنه يبقى كشخص حر، وليس مملوكًا.

وكان السبب الرئيسي لاتخاذ صلاح الدين هذا القرار هو رؤيته للبطريرك هرقل بطريرك بيت المقدس، وهو يدفع لنفسه عشرة دنانير من أجل أن يغادر المدينة، وكان يحمل معه من ضمن الأمتعة التي يخرج بها العديد من صناديق النذور المملوكة لكنيسة المملوكة، وهي مملوءة عن آخرها بالذهب والفضة، ورغم ذلك لم يخفق قلبه على فقراء الصليبيين.

وقد حاول بعض مساعدي صلاح الدين، وكذلك بعض قادة الجيش الإمساك بالصناديق المملوءة بالذهب، والفضة، والتي كان هرقل بطريرك المدينة يهرب بها.

لكن صلاح الدين رفض هذا السلوك، وأخبرهم أن الاتفاق أن يدفع أي شخص صليبي مبلغ عشرة دنانير حتى يخرج ومعه أمتعته، وأخبرهم أيضًا أنه لم يشترط أن يأخذ المسلمون ذهب الكنيسة أو فضتها.

بعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى ساحة المسجد الأقصى يرافقه أخوه العادل ، وابنه الأفضل، والكثير من أمراء وقادة جيوشه حيث صلى في صحن المسجد صلاة شكر لله لقدرته على فتح المدينة.

وقد وافق يوم تخليصه للمدينة من الاحتلال الصليبي ذكرى ليلة المعراج، وهي الليلة التي أسرى الله فيها ليلاً بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس.

وبعد أن انتهى من صلاته أمر باستدعاء كل رجال الدين المسيحيين سواء كانوا من طائفة الأرثوذكس، أو من الصليبيين الكاثوليك واجتمع بهم حيث أخبرهم

أنهم في أمـان تام، وكامل، وأن من حقـهم أن يقومـوا بممـارسـة كافـة شعـائرهـم الدينية، كما أن لهم حرية التنقل داخل أرجاء المدينة دون قيد أو شرط.

وطلب منهم أن يبـدؤوا من لحظة انتـهـاء الاجـتـمـاع في ممارسـة عـباداتهم وصلواتهم، وأعطاهم أموالاً ليقوموا بالصرف منها على الكنائس بدلاً من الأموال التي سـرقهـا هـرقل بطريرك المدينة السـابق، وهكذا فتحت الكنائس أبوابها مـرة أخرى لاستقبال مرتاديها من أجل الصلاة.

بعد ذلك اهتم صـلاح الدين بالإشـراف على عملية ترحيل الصليبيين بالمدينة طبقًا للشروط التي أعلنها لهم، وكان طلب الصليبيين ينحصـر في الذهاب إلى طرابلس.

وكان خـروج الأفواج الصليبيـة من المدينة، وكل فـرد منهم يحـمل مـا اسـتطاع حمله سواء كان من ماله الخاص، أو من الذي سـرقه من إخوانه الصليبيين، وكان يحيط بهم أثناء خروجهم من المدينة جنود صـلاح الدين بغرض تأمين خروجهم، وأيضًا تأمين سفرهم إلى طرابلس كما طلبوا.

وقـد حـدثت مشكلة لهؤلاء الصليبيين عندما دخلوا إلى حـدود إمارة طرابلس حيث انقض عليهم الأمـراء الصليبيون واعتـدوا عليهم وسلبـوا ونهبوا آخر مـا كان يمتلكه هـؤلاء المهاجـرين من أمـوال وذهب، وفضـة، ومع اقتـراب هـؤلاء المهاجـرين من أسوار المدينة أغلق أهلها أسوارها حيث خافوا على أنفسهم من هؤلاء الجياع المشـردين، واستكملوا عمليات السلب، والنهب على هؤلاء الضعفاء لدرجة أنه قد تم سلب بعـضهم من مـلابسـه، لذلك اضطر هـؤلاء الصليبـيون إلى الرحيل نحو إمارة أنطاكيا.

وبمجـرد أن علم المسلمون بخـروج الصليبيين من المدينة، وأن صـلاح الدين قد أحكم قبضته عليها بدأت أفواج المسلمين في دخول المدينة لأجل زيارة المسجد

الأقصى والصلاة به.

والتقى كبار الشيوخ والعلماء من المسلمين مع صلاح الدين حيث صلوا معه صلاة الجمعة الموافق يوم التاسع من أكتوبر في ساحة المسجد الأقصى الذي كانت بادية عليه علامات التخريب التي قام بها الصليبيون عند احتلالهم المدينة عام ١٠٩٩ .

بمجرد أن انتهت صلاة الجمعة أمر صلاح الدين رجاله بضرورة إعادة إصلاح المسجد الأقصى والعمل على تحسينه، وإجراء الترميمات اللازمة لنقوشه ورسوماته، والآيات القرآنية المكتوبة على جدرانه، والتي طالها الخراب من أثر العبث الذي قام به الصليبيون في المسجد بعد احتلاله.

وكان الصليبيون عندما احتلوا القدس ١٠٩٩ قد قاموا بذبح كل من قابلهم من المسلمين، وأثناء قتلهم للمسلمين لم يفرقوا بين المدني الأعزل من السلاح، وبين من يحمل السلاح ليدافع عن أرضه.

وفي هذا الصدد يذكر ابن العبري، وهو مؤرخ مسيحي أن الصليبيين استمروا أسبوعًا متواصلاً في قتل المدنيين العزل من المسلمين، وذكر أنهم قتلوا حوالي سبعين ألفًا من المسلمين الذين اجتمعوا بصحن المسجد الأقصى!!

ومن خلال ما ذكره ابن العبري، وبين ما فعله صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس نجد أن هناك فرقًا واضحًا وكبيرًا!!!

وقد بقي صلاح الدين في المدينة المقدسة حوالي أسبوعين من أجل الراحة من عناء الحرب، وقد استغل هذه الفترة في الإكثار من الصلاة داخل صحن المسجد الأقصى حيث إنه بطبعه وفطرته كان محبًا للصلاة مواظبًا عليها، كما كان دائمًا ما يصليها في جماعة.. وكان في أوقات مرضه وتوعك صحته

يستدعي صديقه القاضي ابن شداد، ويطلب منه أن يصليا معًا، كما كان يتحامل على نفسه أثناء مرضه من أجل الصلاة واقفًا.

بالإضافة إلى أنه كان كثيرًا ما يستيقظ ليلاً ليصلي وحده، وكل الناس نائمون، كما كان حافظًا للمصحف الكريم كاملاً.. وفاهمًا للشرعية الإسلامية كأفضل علمائها.. إذ كثيرًا ما كان يطلب لقاء العلماء، والفقهاء حتى يناقشهم فيما استعصى عليه فهمه من أمور الشريعة، وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان كثير الصيام، وكان يحب دفع أموال الزكاة على الرغم من أنه لم يكن غنيًا حيث نجد أنه لم يمتلك طوال حياته دارًا أو أرضًا زراعية أو تجارة، وإنما كان يعتمد في معيشته على راتبه الذي يحصل عليه نظير المناصب التي تقلدها، وبالتالي فإنه طبقًا للشريعة الإسلامية لا يوجد عنده ما يوجب الزكاة عليه.

والفريضة الدينية التي كان يتوق إلى القيام بها هي أداء فريضة الحج، وزيارة بيت الله الحرام في مكة، لكن ظروف المعارك المتتالية، والطويلة التي خاضها ضد الصليبيين قد استنزفت كل حياته، وحدت من قدرته على الذهاب إلى الحج خاصة أنه كان يستغرق على الأقل ثلاثة شهور من أجل الذهاب والعودة، وهو وقت طويل ما كان يستطيع توفيره في ظل الظروف التي أحاطت بالمنطقة في عصره، وأيضًا المخاطر المستمرة من وجود الصليبيين على الأراضي العربية، واحتلالهم لبيت المقدس.

وقد بدأ تفكيره جديًا في ضرورة أداء فريضة الحج بعد أن عقد صلح الرملة - سنذكره لاحقًا- لكن لما حان وقت السفر للحج واجهته وهو أقوى شخص على وجه الكرة الأرضية مشكلة أساسية وهامة، وهي عدم امتلاكه للمال الشخصي اللازم لسفره للحج.. لذلك قرر أن يؤجل الحج للعام التالي بغرض توفير وتدبير اللازم لذلك من راتبه لكن القدر لم يمهله لتحقيق تلك الرغبة حيث توفي.

وكان حريصًا على تلاوة القرآن الكريم كلما سمحت ظروفه بذلك، وكان إذا

سمع القرآن دمعت عيناه خوفًا من الله وحبًا له.

ذات يوم وهو يسير في الشوارع لتفقد أحوال الشعب سمع صوت تلاوة القرآن صادرة من أحد المنازل، وكان الذي يقوم بالتلاوة طفل صغير، وعندما أصبح الطفل في مواجهته، قام، وسأله عدة أسئلة بينت كيف أن الصغير فاهم، ومدرك لما يتلو، فما كان منه إلا أن أخرج بعضًا من طعامه الشخصي الذي يحمله فوق كتفه، وأعطاه للطفل كما أصدر أمرًا بتملك الطفل وأبيه لقطعة من الأراضي الزراعية.

لذلك لم يكن غريبًا على صلاح الدين أن يكون صبره طويلاً، وممتدًا في حربه مع الصليبيين، والتي أخذت كل سنين عمره تقريبًا بكل ما كانت تتطلبه هذه الحرب من تقديم التضحيات، والتعرض للأخطار، وكثرة السفر والترحال، ونجد أنه قد فعل كل ما سبق، وهو مدفوع بالإيمان الديني العميق، وهذا الإيمان هو الذي دفعه ليكون متسامحًا مع أعدائه، وفيًا لعهوده ملتزمًا باتفاقه.

استكمال العمل

بعد أن شعر صلاح الدين أنه ورجاله قد أخذوا قسطًا كافيًا من الراحة في القدس، والتي استغلها صلاح الدين في الصفاء الروحي بالصلاة، قرر أن يستكمل ما بدأه من أعمال لذلك أخذ جيوشه، واتجه إلى تصفية باقي الجيوب الصليبية الباقية بالشام.

وقد كانت أول بلدة يزحف إليها هي طرابلس، والتي استطاعت إحدى فرق جيشه أن تستولي على قلعة هونين، وهي قلعة تابعة لحصن تبنين الذي كان صلاح الدين قد استولى عليه.

وفي نفس هذا التوقيت كانت إحدى فرق جيشه قد اتجهت إلى صفد، ولم تستطع تلك الفرقة النجاح في المهمة المكلفة بها، لذلك أرسل صلاح الدين بفرقة

عسكرية أخرى لتعزيز الفرقة الأولى، وقد نجحا معًا في إحكام الحصار حول المدينة الذي استمر لمدة عام كامل حتى أعلنت صفد استسلامها.

ويرجع السبب في طول فترة الحصار هو عدم رغبة صلاح الدين في إراقة دماء، ولذلك كان يأخذ بالطريق الأطول، وهو الحصار طالما كان مدركًا ومتيقنًا من أنه سيؤدي الغرض الأساسي له، وهو دخول المدينة.

وبعد ذلك اتجه بجيشه إلى أنرطوس التي فاجأت جيوش صلاح الدين بالهجوم كما أنهم استخدموا كرات اللهب فما كان من صلاح الدين إلا أن قام بالرد بالمثل، فسقطت المدينة سريعًا، واستكمل سيره بعد ذلك إلى بانياس الموجودة في أقصى شمال إمارة طرابلس.

تحرك بعد ذلك من بانياس إلى إمارة أنطاكيا حيث استولى بسهولة في البداية على جبلة، ومنها اتجه إلى اللاذقية باعتبارها أكبر مواني أنطاكيا، وقد استطاع أن يستولي عليها بسهولة بالغة لأنها كانت خاوية على عروشها نظرًا لانسحاب الجيش الصليبي المكلف بحمايتها عند العلم بوصول صلاح الدين إليها.

واتجه بعد ذلك إلى حصن بلاطنس، وحصن العيذون، وقلعة بكاس، واستولى عليها جميعًا، دون قتال، إذ أعلن قائد كل حصن أو قلعة استسلامه بمجرد أن يشرع صلاح الدين في حصار المدينة.

ومع نهاية الشهر كانت كل حصون وقلاع إمارة أنطاكيا قد سقطت في يد صلاح الدين، وهكذا لم يعد متبقيًا للأمير بوهيموند الثالث أمير أنطاكيا إلا ثلاثة قلاع فقط هي : بغراس، القصير، ودربساك.

وفي تلك الفترة كانت الأميرة سيبيل زوجة بوهيموند الثالث مستمرة في إمداد صلاح الدين بالمعلومات السرية الخطيرة التي كان يستفيد منها صلاح

الدين استفادة كبيرة في تحديد الأماكن التي يجب عليه الاتجاه إليها.

وبفضل هذه المعلومات استطاع صلاح الدين فتح قلعة برزية، وكانت أميرتها شقيقة الأميرة سيبيل، لذلك أرسل صلاح الدين أميرة القلعة وزوجها وأولادهما والمقربين منها إلى الأميرة سيبيل، وهم يحملون كل الأمتعة والنقود التي خرجوا بها من القلعة، وذلك على سبيل الإكرام والود لسبيل، وأيضًا تقديرًا لمجهوداتها التي تقوم بها لخدمة صلاح الدين.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان هناك راتب شهري لها نظير المعلومات التي كانت ترسلها إلى صلاح الدين.

وقد عاود صلاح الدين حركته باتجاه الحصون القوية التي ما زالت تحت قبضة وسيطرة بوهيموند، لذلك نجده وقد تحرك بشكل مفاجئ ومباغت من أجل مهاجمة حصن دربساك القوي، وقد قاوم هذا الحصن رجال صلاح الدين بعنف وضراوة، إلا أن صلاح الدين أحكم حصاره عليه إلى إعلان الاستسلام، وقد حدث ذلك في منتصف شهر سبتمبر ١١٨٨ .

مع فتح حصن دربساك القوي زحف صلاح الدين بقواته إلى حصن بغراس، واستولى عليه مع نهاية الشهر، وأخذ كل ما فيه من أسلحة تقليدية مثل السيوف، والرماح، والحراب، وأيضًا الأسلحة المتطورة مثل: كرات اللهب، ومعدات إطلاقها.

وهكذا أصبحت إمارة أنطاكيا تحت سيطرة صلاح الدين إلا أن المدينة نفسها لم يبسط نفوذه عليها بعد حيث إنه قد احتل كل المواقع الحربية الهامة، والحصون الاستراتيجية بها، والتي تتحكم في خطوط المواصلات سواء داخل الإمارة أو منها إلى المناطق الأخرى، وبالتالي شعر صلاح الدين أنه يرفرف لأعلى كلما مرت الأيام خاصة وأن نفس ما حدث في أنطاكيا قد تكرر في طرابلس.

ونتيجة للخسائر الكبيرة التي لحقت بالأمير بوهيموند الثالث أمير أنطاكيا،

أرسل خطابًا إلى صلاح الدين يخبره فيها برغبته في عقد اتفاقية للهدنة بينهما.

وقد وافق صلاح الدين على التوقيع على معاهدة الهدنة بغرض حصوله هو وجيشه على قسط من الراحة خاصة أنه فعليًا لم يحصل على أي راحة منذ عام ونصف حيث أمضى أغلب تلك الفترة في المعارك والترحال، والسفر، والدخول في مفاوضات للهدنة، وقد كانت مدة الهدنة التي تم توقيع الاتفاقية على أساسها هي ثمانية أشهر.

وقبل أن يخلد صلاح الدين هو وجيشه للراحة قرر أن يفتح صفد التي سبق وأن استعصت في فتحها عليه قبل أن يفتح كل حصون وقلاع أنطاكيا، وكان ذلك في بدايات عام ١١٨٩ .

وجدير بالذكر أن ما دفع صلاح الدين لتوقيع تلك الهدنة هو علمه أن الصليبيين لم يعد لهم في كل أراضي الشام إلا صور، ومدينة أنطاكيا فقط، وقد كان قادرًا في مرحلة توقيعه على الهدنة أن يهدم أنطاكيا على رؤوس من فيها لكنه فضل الراحة بعد مشقة طويلة.

وقد حدث في تلك الأثناء أن وصل الأمير كونراد دي مونتفرات إلى صور التي رحب به أحلها ترحيبًا كبيرًا، وكان أول شيء بعد انتهاء مرحلة مجاملات أهلها له أن بدأ في العمل على رفع الروح المعنوية لأهلها، وبدأ في تقوية تحصينات المدينة، وأرسل إلى كل ملوك أوروبا خطابات يطلب فيها منهم المعونة المادية والبشرية.

خطأ استراتيجي

مع نهايات عام ١١٩٠ يكون صلاح الدين قد انتصر انتصارًا يقترب كثيرًا من أن يكون انتصارًا أسطوريًا؛ لأنه خلال ثلاث سنوات فقط بدأت من عام ١١٨٧ إلى عام ١١٩٠ قد استطاع استرجاع كل الأراضي العربية التي احتلها الصليبيون

في الشام قبل مائة عام تقريبًا قبل وقوع زلزال صلاح الدين الذي هز أركان الإمبراطورية الصليبية في الشرق، والتي اعتقد قادتها أنهم قد ملكوا الشرق إلى الأبد.. لكن ها هو حالهم الآن حيث أصبحوا يسيطرون فقط على صور التي وصل إليها كونراد من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الإمبراطورية التي على وشك الزوال.

وليس هناك شك في أن مدينة صور هي الخطأ الاستراتيجي الكبير الذي وقع فيه صلاح الدين، ويرجع السبب في ذلك إلى اتباعه سياسة التسامح مع الأعداء، وإعطائه الأمان لأهلها سواء كانوا من المدنيين أو من الفرسان، والجنود، وأيضًا من الأمراء من خلال الترحيب والموافقة على المكان الذي يرغبون في الذهاب إليه بعد طردهم من الأراضي والمدن التي كانوا يحتلونها.

ونظرًا لأنهم كلهم ودون استثناء قد اختاروا صور، وهو وافق على ذلك بالتالي فقد امتلأت بالجنود والمشاة والفرسان، وقد كانوا في البداية يفتقدون القائد ذي النظرة البعيدة، وصاحب التفكير العميق والرؤية المستقبلية للأمور، وهذا ما تحقق لهؤلاء الجنود والفرسان عندما وصل إليها كونراد، والذي كان قد وصل أولاً إلى عكا، لكنه لما عرف بما حدث طلب الذهاب إلى صور، ونتيجة سياسة التسامح مع الصليبيين لم يتعرض لأي أذى من جنود صلاح الدين المرابضين في عكا . . حيث إنهم تركوا سفينته تبحر بسلام إلى صور..

وعلى ذلك يمكن القول إن وصول كونراد إلى صور بسلام بالرغم من أنه كان في قبضة جيش صلاح الدين في عكا كان بمثابة وصول العقل إلى الرأس أو الرأس إلى الجسم.

ويرجع السبب في التشبيه السابق إلى ما كان يتمتع به كونراد من مميزات شخصية رفيعة المستوى، إذ كان يمتلك جدية في الأداء، وصرامة في الرأي بالإضافة إلى رؤية خاصة بظروف المنطقة، وقناعة ذاتية بأهمية احتلال

الصليبين لأراضي الشام.

وكانت سفينة كونراد عندما وصلت إلى صور كان أغلب أهلها في حالة معنوية متدنية من أثر الهزائم المتلاحقة التي تجرع مرارتها كل الأمراء والفرسان، وجنود المشاة في كل المواجهات مع جيوش صلاح الدين على مدار ثلاث سنوات متتالية.

لكن لما عرفوا بوصول كونراد إلى الميناء بدأت روحهم المعنوية ترتفع وزادت درجة حماسهم وجرت في دمائهم رغبة المقاومة.. وقد لاحظ كونراد ذلك بذكائه وقرأ جيدًا ظروفهم السابقة فكان أول شيء قام به هو اجتماعه مع كل الأمراء الصليبيين المهزومين حيث أمرهم بضرورة وأهمية الاعتراف به قائدًا لهم، وفي المقابل يقوم بالدفاع عنهم، ويكون مسؤولاً عن حماية مدينتهم.

وقد كان توقيت وصول كونراد إلى صور هو نفس التوقيت الذي كان صلاح الدين ينتهي فيه من أمر بيت المقدس، ويحرره وأيضًا انشغاله بفتح كل الحصون والقلاع، والمدن الصليبية الأخرى في الشام.

لذلك بعد أن انتهى من هذا العمل الشاق، والهام، ولم يتبق أمامه إلا صور، وكان يعتقد أنه سيدخلها لكنه وجد أن أبوابها مغلقة في وجهه.

حيث استغل كونراد انشغال صلاح الدين بعملية التحرير الكبرى التي يقوم بها لتخليص كل الشام من القبضة الصليبية، وأخذ في تقوية سور المدينة وميناءها، وعمل على سد كل عجز أو نقص دفاعي في المدينة سواء كان ذلك في البحر أو البر.

ومن المعروف عن صور أنها مدينة حصينة نظرًا لطبيعتها الجغرافية التي تكفل لها مثل هذه الحماية الخاصة، وفوق ذلك فقد استغل كونراد الأموال التي جلبها من القسطنطينية، وشرع في حفر خندق حول المدينة تجري فيه مياه البحر، فأصبحت بذلك تبدو كما لو كانت جزيرة وسط الماء.

لذلك عندما وصل إليها صلاح الدين بغرض فتحها، ولو بالقوة بعد أن انتهى من مهمته في فتح كل مدن الشام التابعة للصليبيين، فإنه لم يستطع فتحها نتيجة حصانتها الطبيعية والاستحكامات الصناعية التي قام بها كونراد، وبذلك لم يستطع دخولها، ومن ثم قرر التراجع عن فتحها.

وقد أصبحت المدينة -صور- لذلك هي المركز الوحيد والجيد للاتصال بين الصليبيين الأوروبيين والصليبيين في الشام عن طريق منيائها البحري.

وتعرض صلاح الدين لكثير من اللوم من قبل المؤرخين المسلمين المعاصرين له على سماحته المفرطة، والتي لا تفرق بين الأصدقاء والأعداء، وقالوا إن سماحته وتسامحه هما السبب في تقوية شوكة الصليبيين في صور بعد أن استطاع أن يكسرها في كل الشام، وفي ذلك نجد أن ابن الأثير قال قولاً شهيرًا: «لا ينبغي للحاكم أن يترك الحزم، وإن ساعدته الأقدار، والأفضل للحاكم أن يكون عاجزًا مع الحزم على أن يكون فائزًا وهو مفرط في الحزم».

لكن نستطيع نحن الآن أن نقول إن ما فعله صلاح الدين هو في الحقيقة جزء لا يتجزأ من شخصيته المشبعة بالإنسانية والأخلاق والتدين كما أنها في نفس الوقت تتميز بالغيرة والحمية في الدفاع عن المقدسات والتراب الوطني، والشجاعة والإقدام وعدم الخوف من الأعداء.

وإذا كنا قد صفقنا طويلاً لانتصاراته المدوية فإننا ينبغي علينا الآن أيضًا أن نرضى عن باقي اختياراته لكونها جزء أصيل من نسيج تفكيره وشخصيته.

وإن كان لابد أن نتعلم مما فعله حتى نتداركه فيما هو مقبل لنا من مواجهات يحاول الغرب بشتى الطرق فرضها علينا فرضًا.

استغاثة كونراد:

بعد رجوع صلاح الدين من أمام مدينة صور وفشله في فتحها نتيجة قوة استحكاماتها أرسل كونراد الأب جوسياسي رئيس أساقفة صور مندوبًا عنه إلى الكرسي البابوي في روما، وأيضًا إلى ملوك أوروبا.

وكانت الرسالة التي يحملها جوسياس تعتقد في مضمونها الأساسي على استثارة الغرب المسيحي الكاثوليكي بأكبر قدر من الدعاية المضللة ضد المسلمين لأن جوسياس كان كلما دخل على واحد من ملوك أوروبا أو حتى بابا الفاتيكان كان يقول له: «لقد تم ضرب المسيح بيد محمد نبي المسلمين».

وقد نجحت تلك الدعاية الفجة في إثارة حفيظة الغرب المسيحي الكاثوليكي، وكان من أبرز الدلائل العملية لتأثير دعايات جوسياس هي خروج فردريك بربروسا على رأس جيش ألماني كبير قدره مؤرخو ذلك الزمان بأنه اقترب من مائة ألف محارب بكامل عتادهم العسكري، وقد اختار بربروسا أن يسلك الطريق البري عبر منطقة البلقان، وآسيا الصغرى للوصول إلى الشام.

وعندما وصلت بدايات جيوش بربروسا إلى آسيا الصغرى أرسل الإمبراطور إسحق الثاني إمبراطور بيزنطة برسالة إلى صلاح الدين يخبره فيها بحجم تلك القوات،وفي نفس الوقت يخبره فيها أنه لن يسمح لجيوش الصليبيين الكاثوليك من الوصول إلى الشام عبر أراضيه - البيزنطيون أرثوذوكس-

بمجرد أن قرأ صلاح الدين رسالة إسحاق الثاني حتى أرسل له برسالة يخبره فيها أنه قد قرر أن تكون الأماكن المسيحية المقدسة في القدس تحت رعاية ومظلة رجال الدين من الأرثوذكس، وطلب منه أن يرسل عددًا من القساوسة والرهبان حتى يتسنى له تسليم الأماكن المسيحية لهم.

وفي مقابل هذه الميزة الكبرى التي حصل عليها إسحاق الثاني كمسيحي

أرثوذوكي فإنه أخبر صلاح الدين بأن من حقه أن يكون المسلمون الذين يعيشون في بيزنطة تحت الإشراف والوصاية الدينية لصلاح الدين لذلك أرسل له صلاح الدين مجموعة من الفقهاء والعلماء في الدين الإسلامي للإشراف على شؤون المسلمين هناك، وقد كان مقر هؤلاء هو الجامع الكبير بمدينة القسطنطينية.

المهم في الأمر أنه عندما وصل فردريك بربروسا إلى مشارف الدولة البيزنطية أرسل له إسحاق الثاني برسالة يخبره فيها أنه لا يستطيع أن يسمح له هو وجيشه بالمرور فوق أراضي الإمبراطورية البيزنطية إلى الشام نظرًا لوجود اتفاقية بينه وبين صلاح الدين لا تجيز له ذلك.

عندما تلقى فردريك بربروسا هذا الرد الذي كان في حقيقته مفاجئًا له إلا أنه في نهاية الأمر انصاع لرأي إسحاق الثاني وقرر أن يكون طريق ذهابه إلى الشام عن طريق بلاد ما وراء القسطنطينية.

كان صلاح الدين -في ذلك الوقت- قد أرسل جواسيسه إلى القسطنطينية حتى يتسنى لهم متابعة تحركات قوات فردريك عن كثب، ومع اقتراب فردريك ورجاله من الطريق البري المؤدي إلى الشام قام صلاح الدين بإخلاء، وتدمير المراكز التي كان يعتقد أن فرديرك سوف يحتلها لتكون مراكز هجوم متقدمة لجيوشه.

لذلك قام بهدم سور طبرية، ويافا، وأرسوف، وقيسارية، وجبيل، كما قام بنقل وترحيل سكان هذه المناطق إلى بيروت، وبذلك لم يعد باقيًا في تلك الأماكن سوى جنوده فقط.

وقد كانت الأقدار رحيمة بصلاح الدين بعدم وصول جيوش فردريك إلى الشام إذ غرق فردريك وهو رجل عجوز أثناء عبوره أحد الأنهار في قلقيلية، وبموته وذيوع خبره بين أوساط الجنود الفرسان تفرقوا نظرًا لعدم وجود قيادة

تلجم تصرفاتهم، ومع تشتت أفراد الجيش فإن المواجهة الكبرى التي أعد لها فردريك قد تأجلت مؤقتًا.

إمدادات الغرب الصليبي

لم تكن حملة فردريك برغم غرقه وتشتت جيشه قبل الوصول إلى الشام تعني توقف الإمدادات الصليبية القادمة من الغرب إلى الصليبيين الذين يحتلون صور بالشام.

حيث إن حملة بربروسا لم تكن في حقيقتها إلا مقدمة لسيل من الإمدادات التي ستأتي من أوروبا إذ أبحر في صيف ١١٩٠ باقي الأجزاء المكملة للفوج الذي خرج مع فردريك.

لذلك نجد أن هذا الفوج تكون من فوج فرنسي بقيادة ملك فرنسا، وآخر إنجليزي بقيادة ملك إنجلترا، وقد توقف الفوجان في جزيرة صقلية بالبحر المتوسط بغرض الحصول على قسط من الراحة، وإعادة تموين السفن حاملة الجنود بالغذاء، وفي نفس الوقت الذي كانت فيه السفن الفرنسية والإنجليزية في صقلية كانت الأمور على أرض المعركة في الشام تبدو كما لو كانت تميل إلى الجبهة الصليبية إذ أنهم بدؤوا في التحول من موقف الدفاع إلى وضع الاستعداد للهجوم.

ويرجع السبب لهذا التحول التكتيكي الهام على أرض الشام إلى الملكة سيبيل التي كانت تستقر في إمارة طرابلس حيث أرسلت برسالة إلى صلاح الدين ترجوه الالتزام بتنفيذ وعده الذي سبق أن منحه إياها بخصوص الإفراج عن زوجها الملك جاي الملك السابق على بيت المقدس.

وأمام هذا الطلب من سيبيل بضرورة الالتزام بوعده لم يستطع صلاح الدين أن يتراجع عن الوعد الذي سبق أن قطعه على نفسه.. فما كان منه إلا أن أوفى

بوعـده، وأفـرج عن جـاي الذي كـان أسـيـرًا عند صـلاح الدين منذ أن تم إلقـاء القبض عليه في معركة حطين.

ويأتي تنفيذ صلاح الدين لوعده في إطار السياسة التي كان ينتهجها في حروبه وهي العمل قدر الإمكان على التسامح مع الأعداء، والوصول إلى الأهداف دون إراقة دماء.

ومعروف أن هذه السياسة التي كان يتبعها صلاح الدين هي في حقيقتها نابعة من موروثه الديني والثقافي على الرغم من أنها هي التي سببت له المشاكل بعد أن استطاع أن يقضي على جذور الصليبيين في المنطقة على الرغم من إدراكه لخطورة اتباع هذه السياسة، وهي التي شاهد بعيني رأسه جزءًا من نتائجها عندما حاول فتح صور آخر معاقل الصليبيين في الشام.

المهم في الأمر أن صلاح الدين عندما أطلق سراح جاي اكتفى بوعد من جاي يتعهد فيه له ألا يقاتله أبدًا، وألا يساعد الآخرين من الصليبيين بأية طريقة من الطرق يكون من شأنها العمل على تهديد أمن وسلامة صلاح الدين!! وكان من ضمن من تم الإفراج عنهم مع جاي الماركيز وليم الثالث مونتفرات والد كونراد حاكم صور.

أثناء سير جاي باتجاه طرابلس وصور تراءت أمام عينيه أمنية العودة قائدًا للصليبيين مرة أخرى، وجاشت في صدره رغبة العودة مرة أخرى إلى حرب صلاح الدين.

لكن كل هذه الأمنيات والأحلام قد تبخرت، بل وانهارت عندما فوجئ برفض كونراد دخول المدينة – صور– رغم علمه بأنه الملك السابق على بيت المقدس، بل أغلق الأبواب في وجهه.

وقد استمر جاي واقفًا ببابها لمدة ثلاثة أشهر، وكان كلما طلب الإذن من

كونراد بالسماح له بدخول مدينة صور يأتيه الرد أن قرار الفصل والبت في أمره ليس في يده، وإنما في يد ملوك أوروبا الذين أوشكوا على الوصول إلى صور.

نظرًا لتكرار الطلب بالدخول إلى المدينة، وأيضًا تكرار الرفض من كونراد فكر جاي في غزو عكا ثاني أكبر مدن مملكته السابقة، وذلك بعد أن استطاع أن يجمع حوله فلول الجنود الصليبيين غير الموالين لكونراد، واتجه بهم عبر الطريق الساحلي إلى عكا.

لم يتنبه جنود صلاح الدين المرابضين على الطريق الذي سار فيه جاي، وقواته إلى مدى خطورتهم حيث تركوهم يمرون من أمامهم دون أن يقاتلوهم على الرغم من أن هذا الطريق تحت السيادة الكاملة لجيوش صلاح الدين.

عندما وصل خبر زحف جاي بجيشه إلى عكا إلى صلاح الدين لم يصدقه في البداية، وظن أن في الأمر خدعة لكن لما تأكد من صدق الخبر كان جاي أصبح واقفًا على أبواب عكا.

حيث كان رأي القادة أن تتم المواجهة أمام عكا ذاتها حتى يكون الجيش الصليبي بين مطرقة جيش المسلمين، وسندان قلعة المدينة من ناحية أخرى.

وأمام هذا الخطأ الكبير في سرعة اتخاذ القرار المناسب، وتنفيذه تأخر صلاح الدين في ملاقاة جيوش جاي، وفي نفس الوقت كانت مقدمات السفن الفرنسية والإنجليزية قد وصلت إلى ميناء عكا مما عمل على رفع الروح المعنوية للجنود المشاة، والفرسان الصليبيين لعلمهم بوجود عسكري يقدر عدده بحوالي عشرين ألفًا من الجنود موجودين في البحر.

وفي نفس هذا التوقيت كان كونراد قد تحرك بقواته متجهًا ناحية الجنوب فازداد بذلك موقف صلاح الدين سوءًا.

لكن صلاح الدين تدارك سوء الموقف التكتيكي الذي وضع نفسه فيه هو

وقادته إذ قـرر أن يباغت الجيوش الصليبيـة سواء الموجودة في البر أو البحر بهجوم سريع.

وقد نجح هجوم صلاح الدين في شل حركة الصليبيين واستمر في هجومه، واستطاع أن يفرق شملهم، وأن يكبدهم خسائر كبيرة، وللدلالة على حجم الكارثة التي حلت بالصليبيين أن الأوبئة بدأت تنتشر من كثرة جثث القتلى فآثر صلاح الدين أن يبتعد بجيشه عن تلك المنطقة خوفًا من إصابة جنوده بالأمراض.

استغل الصليبيون هذا الموقف من صلاح الدن وبدؤوا بسرعة في لملمة أطرافهم المبعثرة، واستطاعوا أن يحيطوا بعكا، وكان أول شيء فعلوه هو البدء في حفر خندق حول معكسرهم، وعمدوا أن يتصل هذا الخندق بالبحر، ومن ثم فقد امتلأ هذا الخندق بالماء، وبالتالي استطاع الصليبيون حصار عكا، وبداخلها حاميتها العسكرية الإسلامية بينما الصليبيون يقفون خلف الخندق الذي حفروه.. وقد استمر هذا الوضع طويلاً.

ونتيجة طول مدة الحصار المزدوج من المسلمين للصليبيين ومن الصليبيين للمسلمين نشأت بينهم علاقات صداقة ومودة، لذلك كان كثيرًا ما يخرج بعض من جنود هذا المعكسر وآخرون من ذاك المعسكر، ويقومون بالرقص والغناء واللعب سويًا.

في تلك الأثناء نجح العادل أخو صلاح الدين بالاشتراك مع حسام الدين لؤلؤ القائد العام للأسطول البحري المصري في الوصول إلى عكا، وفَتَح طريقًا إلى الميناء استطاع من خلاله حسام الدين أن يمد أهل المدينة من المسلمين بما يحتاجونه من مؤن غذائية، وأدوية وملابس.

ومع منتصف شهر فبراير ١١٩١ نجح صلاح الدين في إحلال القوات الاستراتيجية له محل قوات الصف الأول، وقد كان يمكن للصليبيين في هذا

التوقيت اقتحام عكا، والاستيلاء عليها أثناء إجراء صلاح الدين لعمليات الإحلال بين قواته لكن الخلافات الحادة التي نشبت بين القادة الصليبيين لم تمكنهم من الاستفادة من لحظات التشتت التكتيكي عند صلاح الدين أو حتى الاستفادة من عيوب عمليات الخلخلة الاستراتيجية التي تحدث للقوات أثناء إجراءات الإحلال للقوات.

ويرجع السبب الرئيسي لعدم قدرة الصليبيين على استغلال تلك الفرصة الذهبية التي أتتهم من أجل تدمير جيوش صلاح الدين هو ذلك النزاع الشديد الذي نشب بين كونراد، وجاي بسبب تنافسهما حول من منهما يحق له الجلوس على كرسي عرش بيت المقدس، وجوهر الخلاف بين الاثنين أن الملكة سيبيل ملكة بيت المقدس، وزوجة جاي قد ماتت، وبذلك أصبحت أختها إيزابيل هي الوريثة الوحيدة للعرش، ومن ثم أصبح لا يوجد أي حق لجاي بالمطالبة بالجلوس مرة أخرى على عرش بيت المقدس، وذلك طبقًا للقواعد الملكية المعمول بها في هذا الشأن بالإضافة إلى أن سمعة جاي كملك وقائد عسكري أصبحت متدنية، وفي أسوأ أحوالها نتيجة تخاذله في حطين التي جعلت حتى شخصيته كإنسان تفقد بريقها ولمعانها.

ولحسم هذه الخلافات الشائكة اجتمع مجلس الحرب الصليبي في عكا، ووصلوا إلى أنه من الضروري للمصلحة الصليبية العامة أن يتم طلاق الأميرة إيزابيل من زوجها على أن تتزوج من الأمير كونراد بصفته الرجل القوي القادر على حماية مصالح الصليبيين في الشرق، كما أنه الوحيد القادر على مواجهة صلاح الدين على أرض المعارك.

بمجرد أن سمع جاي هذه القرارات حتى أعلن رفضه التام لها، وأعلن أنه لن يسمح بتنفيذها على أرض الواقع، وكان يعلن ذلك بأعلى صوته وبعصبية بالغة مؤيدًا بالكثير من مريديه.

إلا أن أمر اعتلاء كرسي عرش بيت المقدس قد تم حسم أمره بمجرد وصول الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا حيث قام بتوحيد كل المتناحرين وأيضًا الطامعين في العرش حوله، وأصبحوا جميعًا تحت لوائه.

فيليب يبدأ الهجوم

استغل فيليب أوجوست ملك فرنسا وصول الدعم المادي المتمثل في الجنود وآلاتهم الذين أتوا من أوروبا بالإضافة إلى استفادته من تسليم كل القادة في المعسكر الصليبي زمام الأمور له.

لذلك بدأ في مهاجمة عكا عن طريق ضربها بالمنجنيق، وبكرات اللهب بشكل متتال وعنيف لدرجة أنه أجبر صلاح الدين على القيام بشن عدة هجمات على الحصون الصليبية الموجودة حول عكا حتى يجبر فيليب على تخفيف هجومه الشرس على عكا، فما كان من فيليب ردًا منه على قيام صلاح الدين بتلك المناورة إلا أن قام بالهجوم على معسكر صلاح الدين نفسه الذي اضطر إلى التراجع إلي مكانه الرئيسي، وفي هذه اللحظة تركه جيش فيليب، واتجه مرة أخرى إلى عكا.

وما قوى من حماسة فيليب في هجومه على عكا أن جيوش ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا قد وصلت إلى أرض المعركة، وانضمت إلى قوات فيليب في هجومه العنيف على عكا.

ورغم ذلك استطاع بهاء الدين قراقوش قائد الحامية العسكرية لعكا من الصمود وتكبيد الصليبين خسائر كبيرة، وفي هذه المواجهة أثبت بهاء الدين مدى ثبات أعصابه كمحارب قوي يملك من الخبرة العسكرية الكثير.

وفي تلك الأثناء وصلت سفن صلاح الدين الحربية من بيروت إلى ميناء عكا، وبمجرد أن دخلته حتى حاصرتها سفن الملك ريتشارد، وأدى ذلك الحصار

البحري المفاجئ من الصليبيين للسفن الإسلامية إلى قيام معركة بحرية هائلة بين الأربع سفن الحربية التابعة لصلاح الدين وحوالي أربعين سفينة من السفن الصليبية التي تؤول قيادتها إلى ريتشارد.

مع بداية المعركة استطاع ريتشارد أن يغرق السفينة التي تحمل الأسلحة والمعدات الحربية، بينما بقيت السفن الإسلامية الثلاث الأخرى المحملة بالجنود في حالة اشتباك مع سفن ريتشارد حيث استطاعت أن تغرق إحدى سفنه.

وحدث بعد ذلك أن نفد السلاح والغذاء، والماء من السفن الثلاث للمسلمين، وهكذا أصبح وضعهم سيئًا للغاية إذ شعروا أنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من أن يصبحوا أسرى لجنود الملك ريتشارد لذلك اتخذوا قرارًا جريئًا ينم عن شجاعة وتقدير للمسؤولية الملقاة على عاتقهم إذ قرروا إغراق سفنهم حتى لا يستخدمها ريتشارد في هجومه بعد ذلك على المسلمين، ونتيجة لذلك غرق حوالي ستمائة وخمسون جنديًا عربيًا كانوا على سطح السفن الثلاث.

وعلى الرغم من التفوق العددي للجيوش الصليبية على جيش صلاح الدين، إلا أن الجيوش الصليبية لم تستطع أن تحسم الأمر على أرض المعركة نتيجة المقاومة الباسلة التي أبداها جنود صلاح الدين.

لذلك اضطر الفريقان إلى إجراء محادثات بينهما بغرض وقف نزيف الدم من الطرفين، والذي لا يسفر عن تحقيق نتائج إيجابية أو ملموسة على سير المعارك، ونتيجة تلك المفاوضات أسفرت عن سماح الصليبيين لحامية عكا العسكرية بالخروج بكامل عتادها العسكري مقابل أن تدفع للجانب الصليبي فدية قدرها مائتا ألف دينار، وأيضًا أن يقوم صلاح الدين بالإفراج الفوري عن حوالي ألفين وخمسمائة أسير صليبي بالإضافة إلى رد صليب الصلبوت -الصليب الأعظم- الذي كان الملك جاي قد فقده في معركة حطين.

وجدير بالذكر أن صلاح الدين قد أدرك أثناء دوران رحى تلك المعركة أن هذه المعركة ليست معركة عكا، وإنما هي معركة هدفها الأساسي هو استمرار احتلال الصليبيين للشام، وللمنطقة كلها، وهذا هو الذي دفعه إلى الموافقة على عقد اتفاقية عكا مع الصليبيين.

كما أن هناك نقطة أخرى قد وضعها صلاح الدين في حسبانه عندما قرر التوقيع على تلك الاتفاقية، وهي أن جنوده مرهقين ومتعبين من جراء اشتراكهم في معارك متتالية، ومتصلة على مدار ثلاث سنوات كاملة، ولذلك فإن قراره كان اختيار الجانب الاستراتيجي للموضوع من أجل المحافظة على جيشه من أجل ما هو آت من معارك خاصة بعد تأكده من تصميم الأوروبيين على استمرار احتلالهم للشرق، وهذا ما تجلى ، وظهر للعيان من أمر دعمهم الهائل لتلك الحملة والتي كان آخرها وصول قوات فرنسا وانجلترا إلى المنطقة.

ريتشارد يتولى القيادة

بمجرد أن انتهت عواصف الحرب بعد التوقيع على اتفاق عكا حتى بدأت العواصف تهب بشدة من داخل المعسكر الصليبي نتيجة ازدياد الخلافات وتطورها بين قادة المعسكر الصليبي.

حيث ظهرت على السطح مرة أخرى الخلافات بين كونراد وجاي نتيجة رغبة وحلم كل منهما في الجلوس على عرش بيت المقدس، ويرجع السبب إلى ظهور هذه المشكلة على السطح إلى إصابة فيليب بمرض شديد اضطر بسببه إلى العودة السريعة لبلاده.

ورغم مطالبة كل من كونراد وجاي بتولي أمر الصليبيين بعد رحيل فيليب إلا أن الأمور استقرت في يد الملك ريتشارد.

وحتى يعلن عن نفسه كقائد قوي للصليبيين ويخيف صلاح الدين فقد استهل

ريتشارد قيادته للمعسكر الصليبي أسوأ بداية إذ نقض اتفاقية خروج جنود المسلمين بعتادهم سالمين من عكا حيث أمر أن يتم قتل كل جنود تلك الحامية، وكان عددهم يقدر بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل مسلم، وبهذا السلوك الوحشي فإنه يكون قد برهن بشكل عملي على مدى الهمجية المتأصلة في نفوس ملوك أوروبا خاصة إذا ما قارنا هذا السلوك الهمجي بسلوك صلاح الدين الحضاري الذي اتخذه مسلكًا له أثناء تعامله مع الأسرى الصليبيين سواء كانوا من الجنود المشاة، أو الفرسان، أو الأمراء، أو حتى الملوك بعد انتصاره الأسطوري في حطين.

وكان من نتيجة ذلك الفعل الدموي لريتشارد والذي يوضح مدى الغدر وعدم الالتزام بالوعود التي يطلقها من جانبه أن تذكر المسلمون الأفعال المشينة من قتل للمدنيين العزل من السلاح، والتي قام بها الصليبيون عند بداية احتلالهم لبيت المقدس.

ومع ذلك فقد رفض صلاح الدين أن يرد بالمثل على موقف ريتشارد، وكان كل ما فعله هو أن أمر رجاله بعودة الأسرى الصليبيين إلى دمشق مرة أخرى بعد أن كان الاتفاق الأساسي بينه وبين الخائن ريتشارد ينص على تسليم الأسرى الصليبيين لريتشارد مقابل خروج الجنود المسلمين بحامية عكا بعتادهم سالمين.

وبالإضافة إلى ذلك فقد قرر صلاح الدين إغلاق ليس المفاوضات فقط، وإنما أية مناقشة ولو عابرة تصدر من الجانب المسيحي في أي موضوع يرتبط من قريب أو بعيد ببيت المقدس.

بمرور الوقت تأكد ريتشارد من أن صلاح الدين جاد فعلاً فيما قاله بخصوص موضوع التفاوض حول بيت المقدس، لذلك اتجه بكل تفكيره إلى ضرورة قيامه باسترجاع المملكة الصليبية في الشام، والتي اهتزت عروشها وسقطت منذ معركة حطين.

وكانت أولى الخطوات العملية من جانب ريتشارد والتي تتماشى مع ما فكر فيه هو محاولته استرداد كل ساحل البحر المتوسط من عكا وحتى عسقلان.

لذلك زحف بجيشه في آخر شهر أغسطس ١١٩١ بالرغم من ارتفاع درجة حرارة الجو وزيادة نسبة الرطوبة فيه بالإضافة إلى معرفته بقلة المواد التموينية التي بحوزته، وأيضًا صعوبة ووعورة الطريق الذي يسير به، وتأكده من أن كل البلاد أو القلاع أو الحصون التي سيمر بها هي عبارة عن خراب لسابق تدمير صلاح الدين لها عند مقدم حملة فريدريك بربروسا.

عندما تأكد صلاح الدين من أن ريتشارد بدأ زحفه لم يتركه يهنأ بهذا السير إذ اقتفى أثره وأمر جنوده بالانقضاض على مؤخرة الجيش الصليبي، وكان من نتيجة هذه الهجمات من جيش صلاح الدين أن هلك الكثير من الجنود الصليبيين وعلى الرغم من ذلك استمر ريتشارد في زحفه لكن ببطء.

وفي نفس الوقت الذي كان ريتشارد يسير في الصحراء كانت سفنه تسير بمحاذاة الشاطئ، وقد كان أهم شيء يميز قوات ريتشارد هو قدرتها التنظيمية العالية، والترابط بين الأسلحة المختلفة: مشاة، فرسان، أو من ضاربي المنجنيق.

وفي المقابل فقد تميزت جيوش صلاح الدين رغم تعبها من طول الاشتراك في المعارك على مدى أربع سنوات بأنهم يمتلكون ميزة المناورة التكتيكية نتيجة اتساع رقعة حركتهم بينما جيش ريتشارد برغم تنظيمه الإداري فإن قدراته على المناورة محدودة للغاية لكون جيشه محصورًا بين شاطئ البحر من الغرب والصحراء التي تحفظها جيدًا جيوش صلاح الدين.

أخيرًا وبعد طول عناء من ارتفاع حرارة الجو، وزيادة الرطوبة، وأيضًا الهجمات الموجعة التي تلقاها في مؤخرة جيشه استطاع ريتشارد أن يصل إلى مدينة قيسارية مع بدايات شهر سبتمبر.

وقد وجدها مخربة بالكامل، ومدمرة تدميرًا كاملاً بحيث إنه لم يستطع أن يحصل منها على أية مؤن غذائية أو مياه تعمل على تعضيد موقفه القتالي أمام صلاح الدين الذي استغل مدى الإحباط الذي شعر به ريتشارد في المدينة التي كان يعتقد أنها ستكون محطة آمنة له للراحة من عناء السفر، واتجه بقواته إلى جنوب قيسارية، وبحيث أصبح وجهًا لوجه أمام ريتشارد.

وقد دارت معركة ارتفع فيها الوطيس إلا أن صلاح الدين لم يستطع أن ينال بشكل مؤثر من ريتشارد الذي استطاع قواد جيشه أن يقتلوا أياز الطويل أحد أقرب المساعدين المهمين لصلاح الدين.

وعلى الرغم من النجاح المحدود الذي حققه على أرض المعركة وتأثره الشديد على استشهاد صديقه ومساعده أياز إلا أنه ترك كل هذا جانبًا، وزحف قبل ريتشارد إلى مدينة أرسوف.

وهناك عندما التقى الجيشان استطاع صلاح الدين أن يلقن ريتشارد درسًا قاسيًا في فنون القتال، وأصول المناورات، وقد نجح صلاح الدين في هذه المعركة نجاحًا باهرًا إذ استطاع أن يقضي على الكثير من جنود ريتشارد، بل ووصل الأمر إلى حد إصابة ريتشارد نفسه بإصابة بالغة كادت أن تنقله إلى عالم الموتى.

وقد كانت هذه الإصابة التي لحقت بريتشارد سببًا مباشرًا في أن يطلب ريتشارد من صلاح الدين فتح باب المفاوضات حول بيت المقدس، وكل الشام بغرض إيجاد حل ينهي الصراع العربي الصليبي، وافق صلاح الدين على الأمر من حيث المبدأ، وساعده على الموافقة على طلب ريتشارد أن قوات الإمداد التي كان قد طلبها من القاهرة كانت في الطريق إليه.

وبدأت المفاوضات بين الجانبين، ورأس الوفد العربي فيها الملك العادل شقيق صلاح الدين، بينما كان ريتشارد على رأس الوفد الصليبي الذي طلب أن تأخذ

جلسة المفاوضات الطابع السري بمعنى أن تقتصر عليه، وعلى الملك العادل فقط.

وافق الملك العادل على ما طلبه ريتشارد، وأصبح الاثنان في مواجهة بعضهما البعض، فطلب ريتشارد ضرورة عودة بيت المقدس للسيادة الصليبية مرة أخرى كما كان الحال قبل معركة حطين.

وقد رفض الملك العادل ما قاله ريتشارد جملة وتفصيلاً، حيث أوضح له أن بيت المقدس كان طوال تاريخه تحت السيادة العربية، وأن السيادة الصليبية قد آلت لهم بعد احتلالهم للشام فقط، قبل مائة عام تقريبًا من الجلسة التي يجلسون فيها أمام بعضهما البعض.

رفض ريتشارد هو الآخر ما سمعه من الملك العادل، وبالتالي انتهت هذه الجولة من المفاوضات دون حسم أي أمر من الأمور التي انعقدت من أجلها، ومن ثم أصبح حمل السلاح وطريق الحرب هو الخيار المطروح عمليًا حتى يحقق كل طرف ما يصبو إليه.

نتيجة لذلك استكمل الطرفان حوارهما على أرض أرسوف، وقد استطاع ريتشارد أن يحقق فيها بعض النجاحات الملحوظة كنتيجة طبيعية لحصوله على إمدادات صليبية وصلته من البحر.

وفي مقابل ذلك قرر صلاح الدين تخريب عسقلان حتى لا يستفيد منها ريتشارد لأن صلاح الدين تأكد من خلال دراسته للموقف كله سواء على الصعيد السياسي أو العسكري أو الديني أن معركته الحقيقية، والكبرى مع ريتشارد ستكون حول بيت المقدس، وليس على أي من البلاد أو المدن الأخرى وبالتالي أدرك صلاح الدين أن من ينتصر منهما في معركة بيت المقدس سيكون هو المنتصر الحقيقي في الصراع الصليبي العربي كله.

خطأ قاتل .. لريتشارد

وقع ريتشارد في خطأ استراتيجي قاتل كلفه الكثير بعد ذلك عندما رفض الاستماع إلى نصيحة مساعديه لضرورة الهجوم الفوري على بيت المقدس حتى يستغل وقت انشغال صلاح الدين بتدمير عسقلان، وبالتالي فإنه أثناء سيره نحو بيت المقدس لن يجد أدنى مقاومة في الطريق إليها؛ لأن جيوش صلاح الدين أثناء عودتها إلى بيت المقدس كانت عائدة دون تنظيم لصفوفها، وأيضًا حتى يستفيد من ضعف التحصينات حول المدينة، والتي لم يقم صلاح الدين بتقويتها بعد عودتها إلى قبضته مرة أخرى بعد معركة حطين.

وقد وجه ريتشارد كل جهوده بعد أن ضرب بنصيحة مساعديه عرض الحائط نحو إعادة بناء حصون يافا، وقد استغرقت هذه العملية حوالي شهرين، وقد استغلها صلاح الدين في وضع جيوشه في أوضاع دفاعية تتميز بالمرونة التكتيكية التي تمكنه في نفس الوقت من شن الهجمات السريعة على جيش ريتشارد.

وتجدر هنا الإشارة إلى ملاحظة هامة، وهي أنه بقدر اهتمام صلاح الدين بتدمير كل حصون وقلاع، وأسوار مدينة عسقلان كان اهتمام ريتشارد بالقيام بعمليات التأمين الدفاعي لكل حصون وقلاع وأسوار مدينة يافا .. وذلك لمعرفة وإدراك كل منهما أن من يسيطر على هاتين المدينتين الاستراتيجيتين ستكون له اليد العليا في المعركة الفاصلة بينهما.

وقد أثبت صلاح الدين في هذه المرحلة من عمر الحرب مدى ما يتمتع به من مواهب وقدرات في الإدارة الاستراتيجية للمعارك.. حيث إنه أعطى الانطباع لريتشارد أنه سيتجه إلى الرملة واللد فما كان من ريتشارد إلا أن سار إليهما بقواته، وحينما وصلهما وجد أنهما مخربتان بالكامل.

وحتى يكشف صلاح الدين النية الحقيقية لريتشارد فقد وقف بمقدمة جيوشه عند النطرون، وهي في منتصف الطريق إلى بيت المقدس، وعندما وصلته أخبا زحف جيوش ريتشارد نحوها أمر جنوده بهدمها بالكامل وعاد بجيشه إلى بيت المقدس.

لذلك اضطر ريتشارد أن يستكمل زحفه نحو بيت المقدس، وأثناء زحفه تعرض لثلج الشتاء والموجات الباردة ا لمتتالية التي تشتهر بها المنطقة في هذا الوقت من السنة بالإضافة إلى تعرض جيوشه للعديد من الهجمات المتتالية المباغتة والمكثفة من الفرق المتقدمة لجيوش صلاح الدين.

وعلى ذلك فإن الخطة الاستراتيجية التي اعتمدها صلاح الدين في مواجهة ريتشارد قد نجحت لأنه استطاع أن يجبره إلى مواصلة زحفه إلى بيت المقدس بالإضافة إلى نجاحه في قطع خطوط الإمداد والتموين عن مؤخرة جيش ريتشارد.

وأمام كل الظروف التي وجد ريتشارد نفسه فيها وأن عليه أيضًا أن يواجهها، وأن يختار الرجوع أو التوقف، أو استكمال المسير، فإننا نجده قد اختار استمرار الزحف نحو بيت المقدس على الرغم من معرفته الكاملة من الخسائر اليومية الباهظة التي يدفع جيشه ثمنها.

أخيرًا وصل ريتشارد بجيوشه المتعبة والتي تعرضت لخسائر فادحة طوال مسيرتها نحو بيت المقدس.. أمام المدينة التي يحلم بالاستيلاء عليها لكنه وجدها على شكل آخر يختلف عن شكلها عندما احتلها الصليبيون أول مرة عام ١٠٩٩ إذ أصبحت في تلك المواجهة التي يقودها صلاح الدين مدينة محصنة والجيوش الإسلامية حولها في أوضاع دفاعية على أحسن ما يكون، وأيضًا تمتلك القدرات التكتيكية لتتحول إلى وضع الهجوم سواء السريع، أو المتتالي المنظم.

وما زاد من تعقيد الموقف أمام ريتشارد أن صلاح الدين بنى حول المدينة بالكامل سورًا من الحجر عمل على زيادة صعوبة اقتحامها.

وأمام كل هذه الاختبارات العسيرة التي وضعه فيها صلاح الدين اضطر ريتشارد قلب الأسد إلى أن يعود بجيشه إلى الرملة والأسى والحزن يرفرفان حوله، ويملآن قلبه، وهكذا انسحب ريتشارد من هذه المواجهة التي أدرك أنه سيخسر فيها كل جيوشه ، وأن سمعته العسكرية ستدوسها حوافر الخيول كما حدث بالضبط مع الملك جاي وقد حدث ذلك في يناير ١١٩٢ .

مفاوضات سرية

في نوفمبر من عام ١١٩١ ، وعندما بدأت خيبة الأمل تعشش في فكر ريتشارد من إمكانية دخوله بيت المقدس بعد أن وضعه صلاح الدين في مأزق كبير عن طريق مناورته الاستراتيجية الكبرى للإيقاع بجيوش ريتشارد عن طريق وضعها في موقف تكتيكي سيئ أدركه ريتشارد متأخرًا الحل الوحيد الذي وجد أنه ما زال ممسكًا به هو طرح فكرة إجراء جولة جديدة من المفاوضات بغرض إتمام الصلح بين الطرفين،وقد بعث في رسالته التي يطلب فيها فتح باب المفاوضات «أن المسلمين والصليبيين قد هلكوا، وتم تخريب البلاد، وأما عن خسارة الأموال فهي كثيرة لذا يجب أن نستريح من هذا التعب الدائم!!».

وسنجد من محتوى تلك الرسالة التي بعثها إلى صلاح الدين ما يعبر بصدق عن سوء وضعه العسكري على أرض المعارك، وأيضًا مدى إدراكه الشخصي صعوبة تحقيق أي انتصار على صلاح الدين.

وكما حدث في المرة السابقة فقد عين صلاح الدين شقيقه الملك العادل كرئيس لوفد المفاوضات العربي أمام ريتشارد قائد الوفد الصليبي.. وأيضًا كما

حدث في الجولة الأولى أصر ريتشارد على ضرورة عودة القدس للسيادة الصليبية، ولما رأى نفس المعارضة من الملك العادل طلب منه أن يقوم بتوصيل رسالة شخصية إلى صلاح الدين قال له فيها: «إن القدس معبد للصليبيين»، وكان رد صلاح الدين« القدس لنا.. كما هي لكم، وهي عندنا أعظم مكانة مما هي عندكم، فإنها المكان الذي تم الإسراء إليه لنبي الله محمد ﷺ ،وبذلك لا يمكن أن نتركها، ولا نستطيع أن نقول ذلك وسط المسلمين».

وأمام صلابة رد صلاح الدين اقترح ريتشارد حلاً طريفًا لينهي به المشكلة، إذ اقترح أن يتزوج الملك العادل شقيق صلاح الدين من الأميرة جوانا شقيقة ريتشارد، وهي أرملة ملك صقلية.

وكان الهدف الأساسي من اقتراح ريتشارد أن يشترك الزوجان في إدارة بيت المقدس، حيث سيكون الملك العادل نائبًا عن المسلمين، والأميرة جوانا نائبة عن الصليبيين، وبذلك تنتهي المشكلة، لأن الصليبيين في هذه الحالة سيكون لهم بطريرك داخل كنيسة القيامة يهتم بشؤون المسيحيين الكاثوليك.

وقد كانت المفاجأة أن الملك العادل قد وافق على اقتراح ريتشارد فور سماعه منه، وكانت المفاجأة الأكبر هي موافقة صلاح الدين شخصيًا على هذا الاقتراح فور علمه به.

وترجع موافقة صلاح الدين على هذا الاقتراح لتأكده من أن ريتشارد عرض هذا الاقتراح على سبيل الخدعة، والمكر، لكن سرعان ما تبددت شكوك صلاح الدين عندما تأكد من أن ريتشارد كان جادًا فيما طرح من فكرة حيث إن المشكلة الحقيقية التي واجهت ريتشارد ظهرت من جانب شقيقته الأميرة جوانا التي أعلنت رفضها التام من الزواج من شخص مسلم حتى ولو كان ملكًا.

مع ظهور هذا الاقتراح للعامة، بدأ الكثير من الصليبيين في التشكيك في

العقيدة المسيحية لجوانا، واتهمها آخرون بأنها إن تزوجت من الملك العادل فإنها ستكون عاصية للمسيح.

وأمام هذه الاعتراضات التي ما كان ريتشارد يتوقعها طلب من الملك العادل إعلان اعتناقه للدين المسيحي مؤقتًا حتى يتسنى له إتمام مشروع الزواج.. وبالتالي تنتهي الحرب إلا أن الملك العادل رفض ما اقترحه ريتشارد.

وعلى الرغم من عدم دخول اقتراح ريتشارد إلى حيز التطبيق العملي إلا أنه قد أوضح عدة أمور أهمها:

أن ريتشارد على المستوى الشخصي كإنسان، وأيضًا على مستوى الصفة كملك وقائد للصليبيين اقتنع أنه لن يستطيع احتلال بيت المقدس، وفرض سيادته ووصاية الصليبيين عليها بالقوة المسلحة، كما اقتنع أيضًا بمدى ما تتمتع به مدينة القدس من قدسية وأهمية دينية عند العرب المسلمين.

وعلى الجانب الشخصي من الناحية النفسية فإن اقتراح زواج أخته من الملك العادل يوضح مدى اقتناع ريتشارد بمدى الرقي الإنساني، والسمو الروحي، وأسس العدل التي تحكم علاقات المسلمين ببعضهم البعض، وأيضًا في تعاملاتهم مع الآخر، لأنه لولا إدراكه مثل هذه الصفات وتأكده من أنها صفات أصيلة في تصرفات وسلوكيات العرب المسلمين ما كان يعرض زواج أخته على أحدهم.

الحرب هي الحل

مع دخول اقتراح ريتشارد بزواج أخته من الملك العادل إلى طي الإهمال نتيجة رفض أخته، وأيضًا الكثير من أفراد المعسكر الصليبي لهذا الاقتراح على الرغم من ترحيب الملك العادل به، وأيضًا السلطان صلاح الدين، اقتنع ريتشاد بعدم قدرته على الوصول إلى ما يريد من خلال مشروع سلمي بأي طريقة أو وسيلة يحقق بها حلمه بالسيطرة على بيت المقدس.

وعلى ذلك أدرك أنه كي يستطيع أن يواجه باقي قادة المعسكر الصليبي وهو يقف على أرضية صلبة عليه أن يدق طبول الحرب حتى يستمروا على التفافهم حوله وتأييده.

لذلك أعطى أوامره لبناء أسوار عسقلان التي هدمها صلاح الدين، وأثناء فترة البناء للسور وجه كل جهوده من أجل حل كل المشاكل الداخلية للصليبيين، والتي كان أبرزها الخلاف المشتعل بين الأمير كونراد والملك جاي حول من منهما أحق بالجلوس على عرش بيت المقدس.

وأيضًا ما دفع ريتشارد إلى العمل بسرعة على إيجاد حل لتلك المشكلة التي تسبب الصداع الكبير للمعسكر الصليبي كله أنه قد علم أن الأمير كونراد قد أرسل برسالة إلى صلاح الدين بغرض عقد تحالف بينهما من أجل الإيقاع بكل من جاي وريتشارد.

وأمام هذه المعلومة الخطيرة التي وصلت إلى ريتشارد أمر بضرورة عقد اجتماع عام، وموسع يضم كل الأمراء والقادة الصليبيين في الشام، وقام بعرض المشكلة على كل المجتمعين، وطالبهم بضرورة اختيار واحد من جاي وكونراد ليكون هو الملك على عرش بيت المقدس.

وبعد مباحثات شاقة، وطويلة اختار الأمراء بالإجماع الأمير كونراد لاعتلاء عرش بيت المقدس بعد السيطرة عليه!! وكان أساس اختيارهم مبنيًا على شجاعة كونراد وقوة شخصيته، وأرجعوا له الفضل في عودة بزوغ الروح القتالية للصليبيين في الشام منذ أن تسلمها وهي في حالة معنوية منخفضة، بل إن روح الاستسلام هي التي كانت سائدة وتسري بين صفوف جموع الصليبيين الذين تجرعوا الهزيمة مرات، ومرات على أيدي صلاح الدين نتيجة تخاذل جاي الذي كان قائدًا لهم، وأيضًا ملكًا على بيت المقدس، والذي استطاع صلاح الدين أن يأسره، وأن يشتت مملكته، وأن يبسط نفوذه عليها، وقد جاء هذا الاختيار من كل

الأمراء الصليبيين في الشام لكونراد في بداية شهر أبريل ١١٩٢ .

وفي آخر أيام نفس الشهر وجد كونراد مقتولاً وقد أجمع أغلب المؤرخين العرب المعاصرين لهذه الفترة أن المحرض الأساسي لقتل كونراد هو الملك ريتشارد نفسه، وذلك لما كان بين الرجلين من تنافر وعداء على المستوى الشخصي أساسه قوة شخصية كونراد، والتي كان يخشاها ريتشارد المعروف أنه صاحب الشخصية القوية التي لا تحب من يعارضها.

وأمام هذا الحادث الذي قوض استقرار الجبهة الصليبية قرر ريتشارد ضرورة عقد اجتماع آخر بنفس طريقة الاجتماع الأول لحسم أمر من يحق له اعتلاء عرش بيت المقدس.

وقد اختار المجتمعون هنري دي شاميس ليكون ملكًا على بيت المقدس، وقد بارك هذا الاختيار الملك ريتشارد الذي طلب من هنري أن يتزوج من الأميرة إيزابيل أرملة كونراد.

وكان هذا الاختيار على غير الرغبة الحقيقية لريتشارد الذي كان يود من أعماق قلبه أن يتم اختيار جاي لما يربطه به من علاقات ود ومحبة إلا أنه وافق على هنري حتى يضمن بقاء توحد الصف الصليبي.

وفي مقابل ذلك قام بمنح جاي جزيرة قبرص التي كان ريتشارد قد فتحها أثناء مجيئه للشام، وقد استمر جاي وأسرته من بعده في حكم قبرص حوالي أربعة قرون بدأت من عام ١١٩٢ وانتهت في عام ١٤٧٢ .

أصبح الآن ريتشارد مطمئنًا إلى وحدة الصف الصليبي بعد أن حسم أهم الخلافات التي كانت تهدد وحدته.. لذلك قرر أن يستغل الهدوء الذي بدأ يرفرف على المعسكر الصليبي، وزحف بجيشه نحو الداروم التي استطاع أن يستولي عليها على الرغم من المقاومة العنيفة، والباسلة التي أبداها الجنود المسلمون

الموجودون في حاميتها العسكرية.

وبنشوة هذا الانتصار اتجه إلى حصن مجدل يابا لكن جنود الحصن استطاعوا أن يلحقوا به هزيمة نكراء فما كان منه أمام قوة ضرباتهم إلا أن انسحب من أمام الحصن، وقرر الذهاب إلى عسقلان بغرض التزود بالماء والغذاء من هناك وأيضًا الإقامة بها بعض الوقت للحصول على الراحة.

بعد الراحة التي اعتقد أنها كافية له ولجيوشه قرر ريتشارد أن يزحف إلى القدس، وكان زحفه هذا في شهر يونيو حيث الحرارة الشديدة، والرطوبة الخانقة التي نالت بلا شك من أفراد جيشه ومنه هو شخصيًا.

المهم أنه وصل إلى بلدة بيت النوبة، وهي على مقربة من بيت المقدس في منتصف الشهر وعسكر بجيشه فيها انتظارًا لوصول إمدادات الملك هنري دي شامبيني.

وأثناء عسكرة ريتشارد في بيت نوبة تعرض جيشه لكثير من الهجمات من جيش صلاح الدين الذي استطاع أن يلحق خسائر مؤثرة بجيوش الصليبيين، حيث اعتمد صلاح الدين في هجومه على جيوش الصليبيين على المهاجمة بسرايا صغيرة العدد لها القدرة على الحركة السريعة، وشن الهجوم المباغت المؤثر.

ورغم ذلك واصل ريتشارد تقدمه إلى أن وصل إلى قلوينه شمال غرب القدس، وفي نفس توقيت وصوله لها كان صلاح الدين قد أنهى كل مراحل التنظيم الدفاعي النهائي لجيشه حول المدينة.

وواصل تكتيكه العسكري الذي أثبت به نجاحًا كبيرًا في تكبيد جيش ريتشارد الخسائر الكبيرة حيث أصدر أوامره بضرورة توالي خروج الوحدات العسكرية صغيرة العدد إلى كل الاتجاهات بغرض تنفيذ أعمال هجوم لاستنزاف طاقات

جيش ريتشارد وأيضًا تشتيت فكره من ناحية اتجاه الهجوم الرئيسي لقوات صلاح الدين في حالة بدء هجومه.

وكان من ضمن الأهداف الاستراتيجية لصلاح الدين في تلك المرحلة هو تخريب صهاريج المياه التي في حوزة المعسكر الصليبي بالإضافة إلى العمل على إغلاق كل عيون المياه، والآبار في المناطق المتاخمة لتمركز قوات ريتشارد حتى يستفيد من قسوة الطبيعة التي تحتاج إلى ماء كثير للتغلب عليها في ظل هذا الحر الشديد، والرطوبة العالية.

وعندما وصلت الأخبار لصلاح الدين عن طريق سراياه الحربية المتقدمة عن قرب وصول قافلة إمدادات هنري والتي ينتظرها ريتشارد لبدء هجومه لاحتلال بيت المقدس أصدر صلاح الدين أمرًا إلى الأمير بدر الدين دلدرم وهو من خيرة قادة جيشه أن عليه أن يقوم بتجهيز فرقة من أمهر الفرسان على أن تكون المهمة الرئيسية لبدر الدين ليس تدمير قافلة إمدادات هنري وإنما أسرها بكاملها والوصول بها سالمة إلى المعسكر الإسلامي.

بمجرد تلقي بدر الدين لأمر صلاح الدين حتى كان قد جهز الفرقة التي سيقع عليها تنفيذ الأمر، وبمجرد إجرائه التفتيش التمام عليها حتى خرج بها، وقبل أن تغرب شمس هذا اليوم كان الأمير بدر الدين قد نجح نجاحًا باهرًا في تنفيذ الأمر الصادر له، حيث استطاع أن يأسر القافلة بالكامل، وأن يعود بها إلى مقر صلاح الدين.

وقع أمر خطف قافلة إمدادات الملك هنري على ريتشارد وقع الصاعقة، ولما طالبه الأمراء المرافقون له وقادة جيوشه بالبدء بالهجوم على مدينة بيت المقدس أعلن رفضه التام، والكامل لشن هذا الهجوم، وأعلن لهم جميعًا أنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية شن الهجوم على بيت المقدس في ظل تلك الظروف التي يعاني فيها جيشه.

وحتى يحفظ ماء وجهه الذي سال أنهارًا على أراضي قلونية علم ريتشارد بوصول قافلة إمدادات قادمة من القاهرة إلى صلاح الدين فأعطى أوامره المشددة بضرورة النجاح في اختطاف تلك القافلة، ونجح فعلاً في مسعاه لكن بعد أن خسر مائتي فارس من خيرة فرسانه مقابل خمسمائة جندي مشاة من المسلمين.

ما قام به ريتشارد عمل على زيادة إيمان واقتناع صلاح الدين بضرورة العمل على زيادة تقوية دفاعات بيت المقدس لأنها أصبحت هي الهدف الرئيسي لكل طرف من أطراف الصراع.

وفي نفس هذا التوقيت كان الأمراء الصليبيون من أثر ارتفاع روحهم المعنوية نتيجة قدرتهم على قتل خمسمائة جندي مشاة من قافلة الإمدادات التي كانت قادمة من القاهرة لصلاح الدين قد بدؤوا في المطالبة اللحوحة لريتشارد بضرورة اتخاذ قرار البدء بالهجوم على المدينة المقدسة.

لكن ريتشارد ظل على موقفه الرافض لشن الهجوم، بل أعلن أمامهم ولأول مرة رغبته في الانسحاب، وبرر رأيه أنه في حالة البدء بشن الهجوم فإن خسائر الصليبيين ستكون أكثر فداحة من خسائرهم يوم حطين خاصة في ظل عدم وجود أي موارد مائية تحت أيديهم بالإضافة إلى خسارتهم لكل قافلة الإمدادات بما كانت تضمه من مؤن ومياه، وأيضًا فرسان، وجنود مشاه، وأضاف لهم أنه قد خسر أيضًا مائتي فارس من أبرز فرسان جيشه من أجل الفوز بقافلة صلاح الدين، وأن هذا النقص في عدد فرسانه بالإضافة لكل الأسباب السابقة يجعله غير قادر على اتخاذ قرار بدء شن الهجوم.

بمجرد أن جاهر ريتشارد برأيه هذا حتى اشتبك معه الكثير من الأمراء وخاصة الفرنسيين، ولما وصل أمر الخلاف بينه وبينهم إلى طريق مسدود حيث صمم كل طرف على رأيه قرر ريتشارد عقد اجتماع موسع يحضره كل الأمراء

والقادة الصليبيين.

لكن قرار كل المجتمعين أقر بضرورة العمل على تحكيم العقل في ظل الظروف القاسية التي تتعرض لها قواتهم، ومن ثم فقد مال رأي الأغلبية إلى تدعيم قرار ريتشارد.

فور انتهاء هذا الاجتماع طلب ريتشارد من أقرب خلصائه من الأمراء وقادة الجيش أن يتبعوه حيث أعلن في وجودهم قراره النهائي المتمثل في ضرورة انسحاب القوات الصليبية، وعودتها إلى الرملة، ومع صباح اليوم التالي بدأت جيوش الصليبيين في الانسحاب لفشلها في اتخاذ قرار الهجوم.

إعلان شروط الصلح

عندما رأى صلاح الدين جيوش ريتشارد وهي تنسحب باتجاه الرملة ارتفعت روحه المعنوية، وازداد اقتناعًا بما كان يفكر فيه من أن الحرب الأساسية بينه وبين ريتشارد هي على من يحتفظ ببيت المقدس لأن من يحتفظ بها سيكون هو المنتصر، والذي يفرض شروطه على الآخر.

وأثناء فرحة صلاح الدين بقدرته على إجبار ريتشارد على الانسحاب، وهو ما اعتبره في حكم الانتصار على ريتشارد وصلته رسالة من ريتشارد عن طريق الحاج يوسف، وهو أحد أصدقاء الأمير سيف الدين أحد أقرب مساعدي صلاح الدين، وأيضًا كان الحاج يوسف من أصدقاء الأمير أنفرودي تورون، وهو أحد أقرب المقربين من الملك جاي ملك بيت المقدس السابق، والذي أصبح فيما بعد من أقرب مساعدي ريتشارد قلب الأسد، وهكذا كان طرف الوساطة علّى درجة عالية من القرب من الرجل الأول في كل معسكر، وأن وسيطهما صديق مشترك لهما.

وكانت فحوى الرسالة التي قام الحاج يوسف بتوصيلها إلى صلاح الدين تحمل

مضمونًا واحدًا، هو رغبة ريتشارد في إبرام صلح نهائي مع صلاح الدين لتنتهي به الحروب الصليبية في الشرق.

وقد حمل الخطاب الذي أرسله ريتشارد إلى صلاح الدين قدرًا كبيرًا من اللهجة المعتدلة كما أوضح الرغبة الصادقة من ريتشارد في إيجاد حل سلمي للصراع، إذ قال ريتشارد في خطابه: «يقوم الملك هنري دي شامبيني -ابن أخت الملك ريتشارد- بحكم مملكة بيت المقدس.. لكن تحت حماية ووصاية المسلمين،ويكون هو وجيشه تحت طاعة وأمر صلاح الدين.. حتى لو اقتضى الأمر أن تأمرهم - يقصد صلاح الدين- بالاتجاه نحو أقصى الشرق فإنهم سوف يحاربون باسمك - يقصد صلاح الدين.

وكان رد صلاح الدين على هذا الخطاب المحمل باللهجة الودية والاعتدال في الأسلوب أن قال لريتشارد «إن هنري دي شامبيني ابن أختك يكون كأحد أولادي».

وبهذه المجاملة الشخصية الودية بين الطرفين من خلال الرسائل المتبادلة بدأت المبادلة بين الجانب الصليبي، والجانب العربي في جو مفعم بالأمل في التواصل النهائي لحل تلك المشكلة.

وقد كانت رؤية ريتشارد للحل تتمثل في الآتي:

- التمسك بحق الصليبيين في حماية الأماكن المسيحية المقدسة.
- ضمان حرية الحج والعبادة للصليبيين.
- امتلاك كل ساحل الشام من اللاذقية، وحتى عسقلان.

وبالإضافة إلى هذه الشروط فإن ريتشارد طلب أن يناله بعض من كرم صلاح الدين في معاملته للصليبين حيث أرسل له يقول: «إن جماعة من الرهبان قد طلبوا منك بعض الكنائس، ولم تبخل عليهم، وأنا ريتشارد أطلب كنيسة القيامة».

بينما كانت رؤية صلاح الدين للحل تتمثل في الآتي:

- وافق على أن تكون كنيسة القيامة للصليبيين.
- وافق على ضمان حرية الحج، والعبادة للصليبيين.
- اشترط أن يكون امتلاك الصليبيين للبلاد الساحلية ممتدًا من صور في أقصى الشمال، وحتى يافا فقط.
- أن تكون عسقلان وما بعدها خرابًا، ولا يسيطر عليها المسلمون أو الصليبيون.
- أن تكون كل المناطق الداخلية للشام تحت السيطرة العربية الإسلامية.

هذا وقد تعثرت المفاوضات بسبب إصرار ريتشارد على عدم تسليم عسقلان، وتخريبها كما طلب واشترط صلاح الدين، وأمام إصرار رييتشارد على رفض طلب صلاح الدين.. قام صلاح الدين بشن هجوم مباغت على يافا وحاصرها، واشتد بضغطه عليها، وأمام هذا الهجوم المباغت زحف ريتشارد بجيوشه نحو بيروت بغرض احتلالها.

لكن صلاح الدين لم يبال بما كان يفعله ريتشارد إذ زاد من إحكام حصاره على يافا، وبدأ في مهاجمتها فهرب منها كل الصليبيين الذين كانوا موجودين بها، واحتموا بقلعتها التي حاصرها صلاح الدين.

ووصلت هذه الأخبار السيئة إلى ريتشارد الذي كان واقفًا أمام مدينة بيروت فصرف النظر عن فتحها لما رأى سوء حالة يافا، فانسحب من أمام بيروتِ واتجه نحو يافا ووصلها في نفس الوقت الذي أعلن فيه قائد حصنها استسلامه لصلاح الدين، فتدخل ريتشارد ونزل بجيشه إلى مواجهة مع صلاح الدين، وبذلك منع قائد الحصن من تسليمها لصلاح الدين، وبقي ريتشارد في يافا بعد انتهاء المعركة، وعاد صلاح الدين إلى بيت المقدس.

لم يهنأ ريتشارد كثيرًا بالاحتفالات التي أقيمت له ابتهاجًا بقدرته على منع سقوط وتسليم حصن يافا لصلاح الدين إذ أصابه المرض واشتد عليه لدرجة أن الأطباء الصليبيون عجزوا عن علاجه.

عندما علم صلاح الدين بمرض ريتشارد أرسل له بعض من الأطباء المسلمين الذين توصلوا إلى أصل مرضه، وبالتالي وصفوا له العلاج الذي كان في جزء منه بعض الفاكهة الموجودة في بيت المقدس والثلج.. ولما عرف بذلك صلاح الدين لم يتردد في إرسالهما له كل يوم.

بالإضافة إلى المرض الذي أصاب ريتشارد فإن الأخبار قد وصلته أن أخاه يتآمر عليه أثناء غيابه حتى يتسنى له اعتلاء كرسي عرش إنجلترا، وهكذا أصبح ريتشارد بين فكي صلاح الدين، ومؤامرات أخيه عليه.

فما كان منه إلا أن أرسل رسولاً إلى صلاح الدين يخبره بضرورة موافقته على شروط صلح الرملة، وأخبره أيضًا أن بلاده الموجودة وراء البحر -إنجلترا- قد هلكت وأوشكت على الضياع.

لم يبتّ صلاح الدين فيما سمعه من رسول ريتشارد، بل أخذ يفكر في العديد من الخيارات التي يمكن أن يضغط بها على المعسكر الصليبي بقيادة ريتشارد حتى يقبلوا رؤيته لعقد الصلح بينهما، وكان من ضمن الخيارات التي فكر فيها اللجوء إلى خيار الحرب، والعمل على إلحاق هزيمة كبيرة بهم في يافا باعتبار أنها قد أصبحت أهم مركز استراتيجي لهم في الشام، وبتقويضها ينفرط عقد الصليبين.

وأثناء تلك الأيام التي كان صلاح الدين يتدارس فيها الخيارات التي يجب عليه أن يقوم بها على أرض الواقع وصلته أخبار ازدياد وطأة المرض على ريتشارد الذي أصبح على يقين من أنه إذا لم يرجع إلى بلاده بأقصى سرعة فإنه سوف

يموت بأرض الشام، كما أن ريتشارد أرسل له مندوبًا عنه مرة أخرى يعرض فيها ضرورة إتمام صلح الرملة.

كرر صلاح الدين شروطه التي سبق أن رفضها ريتشارد، فوافق عليها هذه المرة ريتشارد، لكن قبل التوقيع دخلت الوفود الرسمية للمسلمين والصليبيين في مفاوضات بغرض صياغة شروط الصلح الذي عقد في اليوم الثاني من شهر سبتمبر عام ١١٩٢ والتي استطاع وفد المفاوضات العربي بقيادة الملك العادل شقيق صلاح الدين من تعديل شروط الصلح لتكون في صالح العرب بعد أن تلقى أمرًا وتوجيهات عديدة بخصوص هذا الأمر.

وفي كل الأحوال فإن الشروط النهائية التي وقع عليها الطرفان قد نصت على التالي:

- للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا.
- عسقلان بالكامل تحت السيادة والسيطرة الإسلامية.
- تكون مدينتا الرملة، واللد مناصفة بين الطرفين.
- أن تكون الأماكن المقدسة المسيحية تحت إشراف المسلمين.
- للصليبيين حرية الحج، والصلاة في كنيسة القيامة.
- أن يكون للصليبيين بطريرك ورهبان داخل كنيسة القيامة كما هو موجود للأرثوذوكس.
- كل مناطق الشام الداخلية تحت السيطرة والسيادة العربية الإسلامية.
- مدة الاتفاق ثلاثة سنين وثلاثة أشهر.

هذا وقد وقع على هذا الصلح الذي أنهى الصراع في المنطقة الذي استمر حوالي مائة عام عن الجانب الصليبي : هنري دي شامبيني وباليان الثاني،

بالنيابة عن الملك ريتشارد قائد الصليبيين في الشام.

وعن الجانب العربي المسلم وقع الملك العادل شقيق صلاح الدين وأيضًا الملك الأفضل ابن صلاح الدين، وذلك نيابة عن السلطان صلاح الدين سلطان مصر والشام.

الحياة الطبيعية:

في نفس لحظة توقيع الاتفاقية بين القادة الأربعة نيابة عن زعيمي كل معسكر شاع الخبر بين الناس في الشوارع وأخذوا يخبرون بعضهم البعض أن صلاح الدين وريتشارد قد وافقا على الصلح.

ومن ثم فقد عمت الأفراح الشوارع، وخرجت جماهير الشعب من المسلمين وهي ترقص، وكان نفس الأمر يتكرر في المعسكر الصليبي.

وقد زحفت جماهير كثيرة إلى حيث مقر إقامة صلاح الدين لتهنئته وتحيته، وعندما علم بقدومهم خرج للقائهم وخطب فيهم قائلاً:

«... إن الصلح قد وقع بيننا وبين الصليبيين، لذلك فإن كل من يريد من المسلمين أن يذهب إلى بلاد الصليبيين فليفعل ذلك.. كما أن من أراد من الصليبيين أن يأتي إلى بلادنا فليفعل».

وقد كانت تلك المقولة في حقيقة أمرها هي الشرارة الحقيقية لبدء التفعيل الحقيقي لتحويل السلام من مجرد ورقة مكتوبة إلى فعل وسلوك ملموس على أرض الواقع.

حيث بدأ العديد من الأفراد من كل جانب في السفر إلى بلاد الطرف الآخر، وقد استغل التجار من الطرفين هذه الظروف في صالحهم حيث بدؤوا في عرض أفضل ما يمتلكون على تجار المعسكر الآخر.

كما بدأ الأفراد المسيحيون في الوصول إلى الشام لأجل زيارة كنيسة القيامة،

وقد عمل صلاح الدين أقصى جهد ممكن حتى يوفر لهؤلاء الحجاج كل سبل الراحة الممكنة، وكان من ضمن أوامره لتوفير الراحة لهؤلاء الحجاج أمره بوضع موائد للطعام في الشوارع التي يمر بها الحجاج ليصلوا إلى كنيسة القيامة، وترجع تلك الفكرة التي اقترحها صلاح الدين إلى عادة تقديم الطعام للمارة في الشوارع في البلاد الإسلامية أثناء شهر رمضان، وأيضًا أثناء الحج لبيت الله الحرام في مكة.

بمرور الأيام ازداد عدد الحجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة بيت المقدس من أجل الصلاة في كنيسة القيامة للدرجة التي أقلقت وأزعجت الملك ريتشارد حيث ظن أن الزيادة في أعداد الحجاج المسيحيين لبيت المقدس قد تكون هي شرارة المشاكل بينه وبين صلاح الدين.

لذلك أرسل خطابًا لصلاح الدين يقترح عليه فيه ألا يتم الإذن بدخول أي حاج إلى القدس إلا ومعه إشارة أو علامة أو كتاب من ريتشارد يدل على أن هذا الحاج قد ذهب إلى القدس بأمره، وقد كان غرض ريتشارد من ذلك هو إجراء عملية تنظيم وتحديد لأعداد الحجاج المسيحيين.

كان رد صلاح الدين مفعمًا بالإنسانية، وبالتفهم الكامل لرغبة هؤلاء الحجاج في زيارة كنيسة القيامة، ورد على ريتشارد قائلاً :

«.. إن هؤلاء الحجاج قد تحملوا مشقة السفر الطويل لأجل زيارة الأماكن المقدسة، لذلك فإنه لا يستطيع أن يمنعهم، أو يحدد عددهم، أو ينظم دخولهم للمدينة أو للكنيسة مهما كان عددهم كثيرًا..»

بعد هذا الخطاب أرسل ريتشارد خطابًا آخر، وأخيرًا لصلاح الدين يخبره فيه أنه قد قرر السفر إلى بلاده بعد أن تماثل تمامًا للشفاء، وذلك حتى يتمكن من إحكام سيطرته على إنجلترا، ووأد الفتنة التي بدأت تظهر فيها أثناء غيابه.

ويسفر ريتشارد إلى بلاده شعر صلاح الدين بالراحة خاصة أن رأيه في ريتشارد أنه خائن وغادر، ولا يوفي بالعهد الذي يلتزم به، ولذلك بمجرد سفر ريتشارد غادر صلاح الدين بيت المقدس واتجه في زيارة تفقد إلى كل المدن الساحلية الواقعة تحت سيطرته، وسيادته حيث أعطى أوامره لكل مدينة زارها بضرورة إصلاح قلاعها وترميم حصونها، والعمل على العناية بفرسانها، وجنودها، وأيضًا على ضرورة زيادة جرعات التدريب القتالية التي يحصلون عليها.

وعند عودته إلى بيت المقدس بعد انتهاء تلك الرحلة التفقدية لدراسة أحوال بلاده وشؤونها العسكرية قرر أن يعود إلى القاهرة التي طال غيابها عنها.

وفعلاً خرج، ومعه بعض من خاصته لزيارة دمشق قبل ذهابه إلى القاهرة، وأثناء الطريق من بيت المقدس إلى الشام شعر ولأول مرة منذ بدأ كفاحه ضد الصليبيين أنه قد أصبح قادرًا على الطيران الآمن كنسر أصيل للشرق، وأنه قد حافظ على كل التراب الوطني العربي، وكل المقدسات الإسلامية، ويسر للصليبيين الأوروبيين حرية أداء شعائرهم في المدينة المقدسة التي دافع عنها، وكان على استعداد لأن يفقد روحه في سبيلها.

وصل إلى دمشق التي استقبلته استقبال الأبطال، ومكث هناك بعض الوقت حتى يلحق به أخوه الملك العادل حيث قررا أن يمضيا معًا بعض الأيام في الراحة واللهو بعد طول عناء، وجهد على مدار أكثر من ست سنوات كانا يخوضان فيها المعارك بصفة يومية.

أثناء وجود صلاح الدين في دمشق كان بطبيعة الحال يؤدي بعض النشاط الروتيني المفروض على سلطان مثله أن يؤديه.. وقد لاحظ المقربون له بطء حركته، وكسله غير المعتاد، وأن حالته النفسية قد أصبحت مضطربة، وأن أعصابه لم تعد تتحمل أي موقف مهما كان بسيطًا حيث بدا عليه لأول مرة في

حياته الانفعال في تصرفاته، وأصبح سلوكه عنيفًا بشكل لا يتناسب مع الموقف، وهو المعروف عنه بقدرته العالية على ضبط النفس، وقدرته على كبح أعصابه من الانفلات.

النسر.. يشيخ!!

وعلى الرغم من ذلك، استمر يؤدي أعماله الروتينية بانتظام، وأكثر من قراءة القرآن، كما أكثر من استقباله لصديقه ابن شداد، وعندما حان وقت وصول حجاج بيت الله الحرام إلى دمشق خرج لاستقبالهم على أبوابها، وقد طلب أن يخرج دون حراسة، وبمجرد أن رأى جموع الحجاج المسلمين دمعت عيناه، ونزل من على حصانه، وترجل نحوهم، وقام بمصافحة أغلبهم يدًا بيد، حتى إن القاضي ابن شداد خاف عليه من أن يندس أحد من وسطهم ويستغل هذا الموقف ويصيبه بسوء.

لكن صلاح الدين لم يعر أي اهتمام لقول صديقه الأثير واستمر في مصافحة الحجاج، وبعد ذلك اتجه هو وصديقه في نزهة سريعة في جبال دمشق حيث شاهد مروجها الخضراء، وكيف أن أفرادها يرعون أغنامهم ويزرعون حقولهم ففرح كثيرًا بذلك لأنه شعر أن ما يشاهده هو نتاج تعبه على مدار سنوات طويلة من المعارك توجها بانتصار حربي هائل في حطين، ثم أنهى المشكلة برمتها بعقده للصلح.

رجع بعد تلك الرحلة الترفيهية القصيرة مع صديقه القاضي ابن شداد إلى قصره، حيث كان أبناؤه قد وصلوا إلى دمشق، وهم: الأفضل، والظاهر، والظافر فاستقبلهم وأثناء هذا الاستقبال، وعلى غير المناسب في تلك الأحوال أخذ يزودهم جميعًا بالنصائح التي يجب عليهم اتباعها بصفتهم من طبقة الحكام الذين عليهم حل مشاكل كل أفراد شعوبهم، والمحافظة على حقوقهم حيث إن ابنه الأفضل هو نائبه على مصر، وأخويه من الأمراء في حلب، ودمشق فقال لهم:

« .. تقوى الله رأس كل خير، وقال: «آمركم بما أمر الله به، فإنه سبب نجاتكم، والحذر كل الحذر من الدماء، والدخول فيها فإن الدم لا ينام.. وأوصيكم بحفظ أمور الرعية، وقلوبهم، والنظر بعدل في أحوالهم، ثم اتجه ببصره إلى ابنه الأفضل، وقال له:

« .. أنت أميني ، وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء، وأرباب الدولة، ورجالها الكبار فما وصلت إليه أنا كان بفضل الناس، ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يبقي على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس، فإن الله لن يغفر لك إلا برضاهم، أما ما بينك وبين الله فإن الله يغفره لك بتوبتك إليه.. إنه كريم».

عندما حل الليل استأذن أبناؤه وخرجوا بينما دخل النسر العجوز إلى مخدعه لينام، وبانتصاف الليل استيقظ وقد أصابته رعشة ارتعد لها جسده من أثر ارتفاع لدرجة حرارة جسمه.

وقد استدعى حرسه أطباء القصر الذين التفوا حوله لكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا علاجًا ناجعًا يستطيعون به إيقاف هذا الهجوم القوي من المرض على النسر النائم في فراشه، وقد ازدادت آلام رأسه وبدأ جسده يدخل إلى مرحلة الجفاف من كثرة العرق الذي يفرزه.

وبعد مرور ثلاثة أيام من بدء مرضه انتشر الخبر الأليم في ربوع دمشق، فاضطربت قلوب الناس، وجزعت قلوبهم وعشش الحزن في رؤوسهم، وثقلت حركة أقدامهم من هول الفزع الذي أصابهم، وهم يتجهون في جموع حاشدة نحو قلعة دمشق للاطمئنان على من امتلك قلوبهم، والدعاء له بالشفاء.

وقد منع الأطباء دخول أقرب أقربائه إلى حجرته نظرًا لتدهور حالته الصحية، وكان المسموح لهم بالدخول عليه هو شقيقه الملك العادل، وابنه الملك الأفضل وصديقه المحبب القاضي ابن شداد، وأيضًا القاضي ابن الفضل.

وبمرور الساعات كانت وطأة المرض تشتد عليه، لذلك بدأ في الدخول في نوبات من فقدان الوعي، وأيضًا الدخول في نوبات متكررة من الإغماء، وحتى في الأوقات التي يكون مستيقظًا فيها فإنه يبدو شارد الذهن غير مدرك لما يدور حوله.

وبالإضافة إلى ذلك فإن كميات العرق التي يفرزها جسده أخذت في الازدياد مما تسبب في وضوح حالة الجفاف في الجسد عليه، وبالتالي أصبح جسده هزيلاً، لا يقوى على حمله.

وفي اليوم العاشر من بدء مرضه تحسنت حالته بشكل ملموس إذ استطاع أن يشرب ويأكل بعض الطعام على غير عادته منذ بدء إصابته بالمرض، وقد فرح كل من بقلعة دمشق لتحسن حالته، وسرعان ما انتقل الخبر إلى الجماهير في الشوارع التي أخذت تهتف بحياة محبوبها الأثير، وأخذت تدعو له بتمام الشفاء، وقد تبدل حالهم من الحزن إلى الفرح والسرور.

لكن مع بزوغ فجر اليوم الحادي عشر لبدء مرضه كانت حالته قد تدهورت بشدة، وبشكل أكثر صعوبة، وسوءًا عن ذي قبل، فتأكد أخوه الملك العادل، وأيضًا ابنه الملك الأفضل، وصديقه القاضي ابن شداد أن تلك الصحوة التي انتفض فيها جسده مقاومًا المرض ما هي إلا صحوة الموت.

عقد الثلاثة السابق ذكرهم اجتماعًا سريعًا في الغرفة المجاورة للغرفة التي يرقد فيها النسر مريضًا، وقرروا أن ينزل الملك الأفضل إلى الناس في المسجد الكبير بدمشق، ويخبرهم بقرب موت معشوقهم وحبيبهم، ويعلنهم أنه سيكون خليفته في الحكم.

ويرجع السبب إلى عقدهم لهذا الاجتماع هو إحساسهم جميعًا بمدى الخطورة السياسة، أو العسكرية التي يمكن أن يتسبب فيها موت النسر، والتي قد يستغلها

الصليبيون فيما يضر بمصالح المسلمين، والعرب لذلك كان لزامًا عليهم أن يرتبوا عمن يخلفه حتى لا يحدث فراغ في السلطة الإسلامية في هذا الوقت العصيب.

وفعل الملك الأفضل ما تم الاتفاق عليه في هذا الاجتماع المصغر، وقد بدا الحزن والوجوم على وجوه الناس في المسجد أو في الشوارع.

ومع حلول مساء اليوم التالي، وكانت الليلة الثانية عشر لبدء مرضه، دخل النسر المحلق عاليًا في سماء المنطقة في غيبوبة لم يكن يفق منها إلا للحظات معدودات وفي آخر مرة أفاق فيها طلب من القاضي ابن شداد أن يقرأ على رأسه بعضًا من آيات القرآن الكريم، وأثناء قراءة ابن شداد للقرآن فوق رأس النسر فاضت روحه إلى خالقها، وكان ذلك في منتصف مارس من عام ١١٩٣ ميلادية ٥٨٩ هجرية عن عمر يناهز سبعة وخمسين سنة.

ولما انتشر الخبر في الشوارع أصبحت الأحزان ترفرف على كل بيت، والدموع تنهمر من عيون الصغار والكبار على حد سواء، وشعر كل منهم أن أباه أو أخاه أو ابنه قد مات.

وقد كان كل ما تركه النسر الذي فرد جناحيه على كل منطقة الشام، ومصر والذي كان من أعظم القادة قوة في عصره، ومن أكثرهم حنكة وخبرة بالشؤون العسكرية سبعة وأربعين درهمًا وجرام واحد فقط من الذهب هي كل ماله الشخصي الذي تركه لأبنائه من بعده.

وبوفاة صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب تكون الإنسانية كلها قد فقدت واحداً من أكثر الحكام عدالة، ورحمة، ورغبة في السلام، والتسامح مع الغير.

لذلك استحق أن تكون ذكراه وتاريخه محفوراً في ذاكرة العالم الشرقي والغربي على حد سواء.

شخصيات أثرت في التاريخ



صلاح الدين


9 789774 360770

مكتبة النافذة